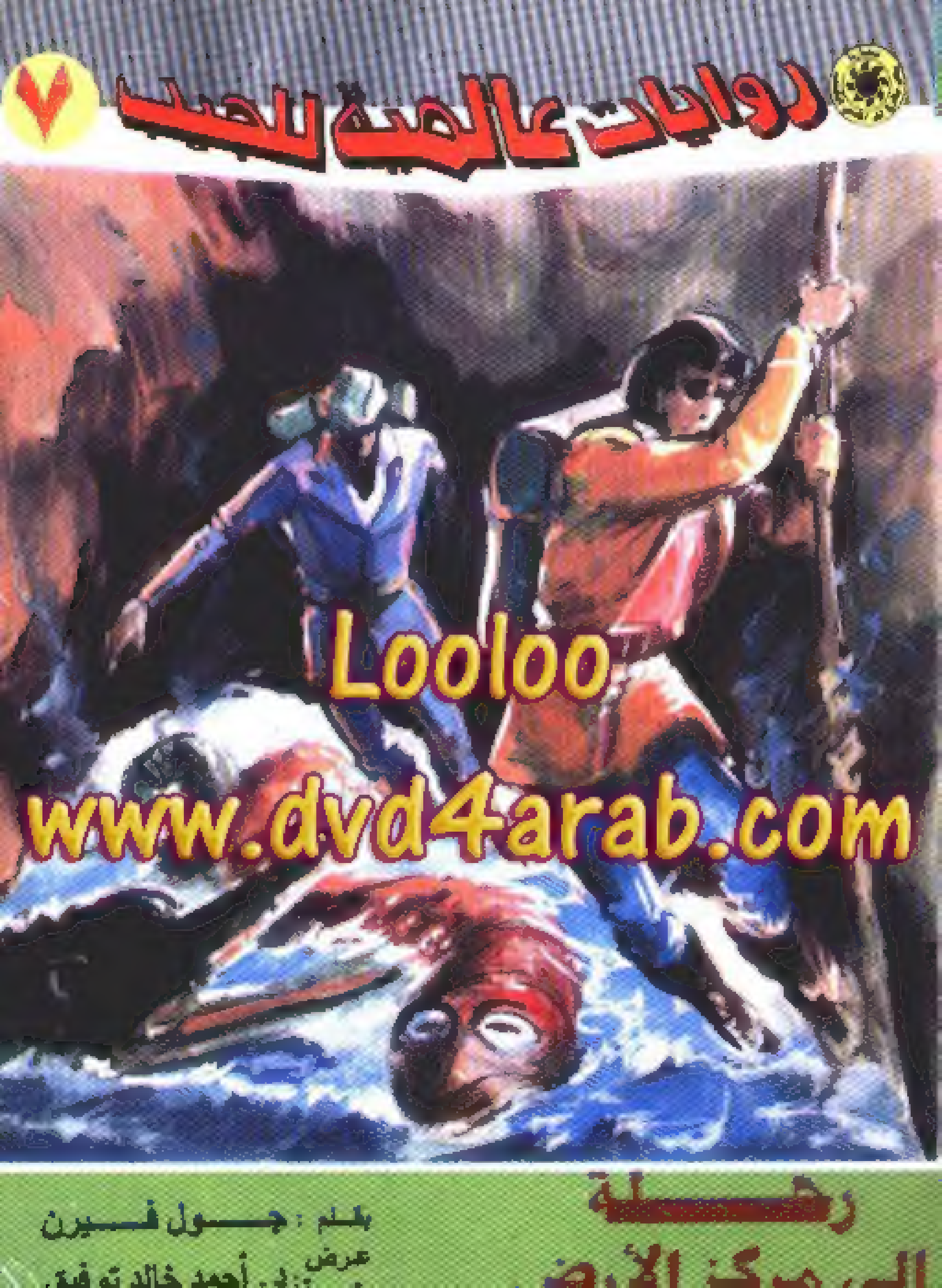

روايات عالمية للجيب
٧
رحلة
الى مركز الأرض
بقلم : جول فيرن
عرض : د. أحمد خالد توفيق

روايات عالمية للجيب

سلسلة جديدة ، تقدم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي ، في مختلف صنوفه ..

من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية ..

من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال ..

من الفروسية إلى دنيا الأساطير ..

ومن الشرق إلى الغرب ..

وإلى الحضارة ..!

وإليك ..

د. نبيل فاروق

المؤلف

إن هؤلاء الذين توترت أعصابهم مع (فيلياس فوج) الذي يحاول أن يدور حول العالم في ثمانين يومًا وإلا فقد ثروته ؛ والذين ارتجفوا وهم ينزلون في غواصة الكابتن (نيمو) على عمق عشرين ألف فرسخ تحت البحر .. ؛ والذين حبست أنفاسهم مغامرات (ميشيل ستروجوف) رسول القيصر ؛ والذين غرقوا في الحسابات المعقدة مع (ميشيل آردان) لمعرفة هل يمكنهم الوصول إلى القمر عبر فوهة مدفع أم لا .. ، كل هؤلاء يعرفون جيدًا الأديب الفرنسي العبقري (جول فيرن) !

من هذا العبقري صانع الأحلام ؟

• ولد (جول فيرن) في (نانت) بفرنسا عام ١٨٢٨م .. درس القانون وهوى الأدب .. وكالعادة كانت للأدب الكلمة العليا .. وهكذا قدم بعض مسرحيات شعرية محدودة النجاح ، ورواية تاريخية عاطفية (مارتن باز) لم يسمع بها أحد ، على أن نجاحه تحقق حين قدم روايته (خمسة أسابيع في منطاد) التي حققت نجاحًا غير عادي .. ، وتوالت رواياته ذات الأسماء المدوية والتي جعلت منها

السينما أحلامًا ملموسة عالقة بالأذهان .. (مغامرات الكابتن هاتيرا) .. (رحلة إلى قلب الأرض) .. (من الأرض إلى القمر) .. إلخ .... ثم توالت سلسلة رواياته المسماة (رحلات فوق العادة) والتى ضمت أسماء مثل (الجزيرة) (ميشيل ستروجوف) .. (سيد العالم) .. (عشرون ألف فرسخ تحت الماء) .. إلخ ..

وقد قضى هذا الأديب العبقرى حياته فى رحلات لا تنتهى على ظهر يخت خاص به لأنه لم يحب فى حياته ـ على حد قوله ـ سوى البحر والموسيقا والحرية .. ولا أظن أحدكم يخالفه الرأى ! .. ، ثم إنه تُوفى عام ١٩٠٥ م ، معلنًا مصرع الخيال الساحر الذى بهرنا جميعًا ... ، وكان عمره سبعة وسبعين عامًا وقتها ..

وكلما حقق الانسان فتحًا جديدًا كالصعود للقمر اكتشف فى دهشة أن (جول فيرن) أو (هـ . ج ويلز) أو حتى رسوم (ليوناردو دافينشى) التى لم تنفذ قط كلها تنبأت ـ بنظرة مستقبلية لا تخيب ـ بهذا الفتح .. إنها شفافية الفنان وإيمانه الكامل بملكات العقل البشرى ، بالإضافة إلى قدرته السحرية على الحلم ..

إن كتاب الخيال العلمى أطفال كبار .. ولهذا يأخذ النقاد على كتاباتهم خلوّها من البعد الإنسانى ،.. وهذا

شىء طبيعى بالنسبة لطفل يحلم ..!.. ، لا أحد يطالبه أن يحلم بعمق ولكن بإمتاع ..

على أن هنالك ملحوظة أرجو ألا تقلل من حماس القارئ وإنبهاره بهذه الرواية .. هى أنها لا يمكن أن تتحقق .. على الأقل بصورتها الحالية ..!.. إن كاتبًا مدققًا (*) فى التفاصيل العلمية يؤكد أن هذا مستحيل .. لأن النزول فى أعماق الأرض لمسافة ثمانية أمتار يزيد الضغط الجوى بمقدار ٠,٠٠١ مما هو عليه ، وبالتالى على مسافة ثمانية وأربعين كيلومترًا ـ العمق الذى بلغه بطلا القصة ـ يكون الضغط الجوى أكبر بأربعمائة مرة .. وتزداد كثافة الهواء ٣١٥ مرة ..، على أنهما خلال أحداث القصة وصلا إلى عمق ١٢٠ كيلومترًا ، وهو أمر مستحيل ولا يمكن أن يتحمله بشر . ويقول الكاتب إن أكبر عمق يستطيع الإنسان النزول إليه دون أن يصاب بأذى هو ٨,٩ كيلومتر حيث يتضاعف الضغط الجوى إلى ثلاثة أمثاله ..

ملحوظة بسيطة نذكرها حرصًا على الدقة لكننا لن نتركها تحرمنا من الاستمتاع بهذه الرواية الرائعة ..!

د. أحمد خالد

(*) الكاتب الروسى (ياكوف بريلمان)

١ ـ أوراق قديمة...

كان ذلك فى يوم الأحد الرابع والعشرين من مايو عام ١٨٦٣ م ، حين اندفع عمى ـ البروفسير (ليدنبروك) ـ إلى منزله الصغير رقم ١٩ الكائن فى شارع (كونيش) بمدينة (هامبورج) ..

كان أول ما فكرتُ فيه طاهيتنا (مارتا) هو أنها قد تأخرت فى إعداد العشاء .. أما أنا فقد أدركت أن كارثة ستحدث إذا ما كان جائعًا .. لأنه ـ بالفعل ـ أكثر الرجال نفاذًا للصبر فى هذا العالم ..

صرخت المرأة البائسة فى هلع :

ـ لقد عاد السيد !!..

ـ بالفعل يا (مارتا) .. وأعتقد للأسف أن العشاء لم يُعدّ بعد .. فالساعة لم تتعدّ الواحدة والنصف ..!

سألتنى (مارتا) فى حيرة :..

ـ ولماذا عاد مبكرًا هكذا ..؟

ـ سيحكى لنا بنفسه ..

ـ ها هو ذا قادم .. سأعود للمطبخ .. وأرجو أن تسأله عن سرّ عودته المبكرة هذه .. وقل له إن العشاء ليس جاهزًا ..

هكذا وجدت نفسى وحيدًا .. ولم أجد لدىَّ أية رغبة فى أن أفسر أى شىء لهذا البروفسير (فاقد الصبر)..؛ لهذا أزمعت أن أهرب إلى غرفتى .. حين اندفع عمى إلى المنزل ..، وقبل أن أفهم شيئًا رمى عصاه فى ركن الغرفة وقبعته على المائدة .. وصرخ :

ـ (أكسل) اتبعنى !!

وقبل أن أحرك ساكنًا .. دوى صوته وقد اكتسب رنينًا نافد الصبر إلى حد لا يُوصف :

ـ ماذا ؟.. أما زلت هنا ؟

لهذا وثبت من مكانى خلف هذا الرجل المرعب الذى اتجه الى مكتبه ..

• • •

لم يكن (أوتوليدنبروك) رجلاً سيئًا ..

إلا أنه كان ـ كما لاحظتم ـ رجلاً شديد العصبية يستحيل إرضاؤه ..، وكان أستاذًا فى الجامعة يعطى محاضرات فى علم (الجيولوجيا) يفقد فيها أعصابه بشكل منتظم ، ولم يكن يهتم كثيرًا بما إذا كان طلبته يدرسون بجهد أو يفهمون أى حرف من كلامه أو ينجحون أو يرسبون ... لا شىء من كل هذا .. كل ما كان يعنيه هو أنه يستمتع بمحاضراته ..، على أنه

— للأسف — كان يلاقى أحيانًا صعوبات فى نطق بعض المقاطع العلمية الطويلة التى تأبى الخروج من فمه .. والتى تؤذى قائلها وسامعها على السواء ....، وبالطبع كان علم (الجيولوجيا) يزخر بهذه المقاطع الشنيعة نصف اللاتينية نصف اليونانية .. من ثَمَّ كان يفقد أعصابه كثيرًا ...!

وقد أدرك تلاميذه السحر الكامن فى لحظات عصبيته هذه ؛ لذا واظبوا — فى خبث — على حضور محاضراته .. ليضحكوا ..

على أن عمى — والحق يقال — كان رجل علم حقيقيًا .. لو أنك ناولته صخرة .. أية صخرة .. سينظر لها .. ويتحسسها .. ويشمها ويقرعها مصغيًا لصوت القرع ، ثم يقول لك — فى كل الحالات — أية صخرة هذه ومن أين جاءت .. من بين الستمائة نوع من الصخور التى يعرفها العلم حتى اليوم .؟.

وكان رجال العلم يثقون به ويستشيرونه فى عديد من الأمور .. كان طويل القامة .. ناحلاً يبدو وهو فى الخمسين كأنه فى الأربعين من العمر ، وكانت عيناه الواسعتان تلتمعان خلف زجاج منظاره ، على حين يذكرك أنفه الطويل الحاد بنصل السكين .. ذلك الأنف

الذى شبهه الكثيرون بالمغناطيس ، وزعموا أنه يجذب الأجسام الحديدية .. لكننى أستطيع أن أؤكد لك أن هذا لا يحدث عادة !

وكان عمى ثريًا إلى حدّ ما .. وقد عشت معه فى هذه الدار ونشأت معه وابنته (جروبين) والخادمة (مارتا) لأن أبوىّ قد توفيا ..

يجب أن أعترف لك أننى أهيم حبًا بعلم (الجيولوجيا) ولقد وجدت سعادة حقًا فى معاونة عمى فى عمله مابين الصخور والأحجار .. لقد كان يحبنى حقًا برغم أسلوبه العجيب فى إظهار هذا الحب ..، فى الواقع كان رجلاً لا يملك موهبة الانتظار .. يزرع الزهور ويجذب أوراقها كل صباح كى يعجل بنموها .. !

لهذا .. وحين نادانى لم يكن أمامى سوى شيء واحد أفعله .. أن أركض كالملسوع إلى مكتبه ..!

• • •

كان عمى جالسًا فى مُتحفه — أعنى مكتبه — بين عينات الصخور المتراكمة هنا وهناك على (شيزلونج) كبير يمسك كتابًا فى يديه ويرمقه فى إعجاب عظيم ..

— ياله من كتاب !.. ياله من كتاب !

يجب هنا أن أذكر أن عمى كان عاشق كتب ..

— لقد وجدت هذا الكنز صباح اليوم فى مخزن كتب قديم ..

— رائع !

قلتها دون أن أجد تفسيراً يبرر الروعة فى كتاب بالٍ قديم غُلّف بجلد أصفر متسخ ..

— هل ترى ؟ .. إنه بحال جيدة .. يُفتح ويُغلق بسهولة .. وبرغم هذا فعمره ستة قرون !

وجدت من واجبى أن أقول شيئاً ما أدارى به لامبالاتى :

— وما هو عنوان هذا الكتاب الرائع ؟ .

— اسمه ؟ .. اسمه (هايمس كرينجالا) للكاتب الأيسلندى الأعظم (سنورى توريلسون) .. ويحكى فيه تاريخ أمراء النرويج الذين حكموا (أيسلندا) .. والكتاب كله مكتوب بحروف (رونية) .. تلك الحروف رائعة الجمال التى كانت مستعملة فى (أيسلندا) ..!

وهنا .. سقطت لفافة صغيرة من الكتاب العتيق .. وثب عمى ـ كما يمكنك أن تتوقع ـ ليمسك بها .. والتقطها .. كانت ورقة طولها خمس بوصات ، وعرضها ثلاث ، خُطّت عليها حروف غريبة ..

— إنها حروف (رونية) أيضاً .. ولكن مامعناها ؟..

كنت أومن أن هذه الحروف (الرونية) هى حروف اخترعها أناس موهوبون كى يزيدوا متاعب أولئك البؤساء الذين لديهم ما يكفى من المتاعب .. لهذا سررت لأن عمى لم يفهمها ..

كان عمى خبير لغات .. لا أعنى بهذا أنه يجيد الألفى لغة المستعملة فى العالم ، لكنه كان يعرف الكثير عن معظمها ..، لهذا كانت هذه المشكلة قمينة بأن تفقده أعصابه ..

فى هذه اللحظة انفتح الباب .. وظهرت (مارثا) لتقول :

— العشاء على المائدة ..

كان رد عمى هو سيل من السباب ألقاه على رأسها فولّت الأدبار .. وتبعتها أنا إلى مقعدى المعتاد على مائدة الطعام ..

انتظرت هنيهة ، لكن عمى لم يأتِ ...

لم أعتد منه أن يتأخر عن عمل هام كالعشاء .. وأى عشاء !.. عشاءٌ هائل .. لهذا حرصت على أن آكل نصيبه مع نصيبى ، على صوت عويل (مارثا) الطيبة التى توجست شراً من كل هذا :

— لم أر شيئاً كهذا من قبل .. السيد (ليدنبروك) لم

يأت للعشاء ! لا أصدق ذلك .. ثمة شىء رهيب سيحدث !.. كارثة !..

بالنسبة لى كانت الكارثة هى أن يعلم عمى بما حدث لعشائه ... وكنت أوشك على الانتهاء حين دوى صوته كالرعد يناديني .. فطرتُ إلى مكتبه ..

ـ اجلس ها هنا .. واكتب ..

أمرنى عمى ، فامتثلت على الفور ..

ـ سأمليك الحرف الرومانى المقابل لكل حرف من هذه الحروف (الرونية) .. وسنحاول أن نرى ما ينتج من كل ذلك ..

بدأت أسطر مجموعة عجيبة من الكلمات التى لامعنى لها ... وما إن فرغتَ حتى تناول عمى الورقة وشرع يتأملها فى حيرة ..

ـ إنها ما يُسمى بالـ (كريبتوجرام) .. حيث يتم خلط الحروف لتكوين كلمات بلا معنى لا تفهم إلا إذا أعدناها للترتيب الصحيح ..

لم يبدُ لى كل هذا ذا معنى ، لكننى كنت أحكم من أن أصارحه بذلك ... كان عمى يؤمن أن هذه الورقة كتبها شخص ما ، اقتنى هذا الكتاب بعد تأليفه بأعوام عديدة.. وبالتفتيش عن اسمه .. فى باطن الغلاف ، استطاع

أن يجده مكتوبًا بحروف باهتة :

ـ (آرنيه ساكنوسم) !.. هذا هو اسمه .. اسم العالم الذى اقتنى هذا الكتاب منذ ثلاثة قرون ...!، أراهن أنه يخفى فى هذه الشفرة تفاصيل كشف مذهل عرفه في عصره .. لابد أن الأمر كذلك ...!

وأشار نحوى فى لهفة :

ـ لن آكل ولن أنام حتى أحلّ طلاسم هذه الشفرة .. وكذا أنت يا (أكسل) !

• • •

إن من يملك المفتاح يمكنه حلّ الشفرة .. ولكن أى مفتاح ؟ كنت أنا شارد الذهن أرمق صورة (جرويبن) المعلقة على الحائط ، وكانت ساعتئذ فى (لاتونيا) فى زيارة ما ، كنت أنا و (جرويبن) نعشق بعضنا ، فى صبر وهدوء رزين .. وكنا قد تعاهدنا على الزواج ؛ لكن عمى لم يدرك شيئًا عن هذا ، لأن (الجيولوجيا) جعلته عاجزًا عن فهم أشياء كالحب ...

كانت (جرويبن) شقراء جميلة ، زرقاء العينين ، فيها شىء من الصرامة فى الواقع .. وكانت تحب (الجيولوجيا) مثل أبيها ومثلى .. وكم من ساعات عذبة قضيناها ندرس معًا ..!.. وحين نفرغ كنا نتنزه على

شاطئ النهر ، نتبادل كلمات حالمة .. ونضحك..

ـ لا معنى لهذا !

قالها عمى وهو يضرب المائدة بقبضته ، مما أعادنى لعالم الواقع .. كان غارقًا فى محاولات فاشلة لإعادة ترتيب الحروف .. وفى اللحظة التالية كان قد غادر الغرفة مندفعًا نحو الشارع بأسرع ما استطاعت قدماه .. وسمعت (مارتا) صوت الباب يُغلق بعنف هز البيت .. فصرخت :

ـ لقد ذهب !..

ـ بالفعل ..

ـ دون عشاء ؟..

ـ عزيزتى لن يحتاج السيد للأكل بعد اليوم .. ولن يأكل مخلوق فى هذا البيت بعد اليوم .. فلن يُسمح له بذلك ..!!

ـ إذن سنقضى جميعًا من الجوع ..!

وكان كلامها صحيحًا أكثر مما تتوقعه ..!..

عدت للمكتب بقلب كئيب ، وشرعت أنسق بعض الصخور مفكرًا أين عساه يكون ؟ .. تخيلته يخطو فى شوارع (لاتونيا) خطواته الواسعة آتيًا بحركات عصبية .. قاطفًا الأزهار .. ومفزعًا للطيور البريئة ..

أمسكت بالورقة ، وعدت أحاول ترتيب الحروف مفترضًا أن اللغة اللاتينية هى ما كتبت به الشفرة .. أجهدت نفسى حتى أن الحروف بدأت تتطاير متداخلة فى عقلى ...، بدأت أحرك الهواء بالورقة .. وهنا تبدى لى بصيص من الفهم .. لقد وجدت الحلّ ...!

* * *

لقد كان البروفسير محقًا فى ترتيب الحروف ، لكنه كان يحتاج لخطوة واحدة ـ مثل التى وجدتها بالصدفة ـ كى يجد حلّ اللغز ، والآن يمكننى أن أقرأ المكتوب على الورقة باللغة اللاتينية ..

وهنا انتابنى الذعر !.. هل هذا صحيح حقًا ؟.. هل بلغت الشجاعة بأحدهم هذا الحدّ ؟!.. لا .. لن أدع عمى يعرف ، لأنه لن يكتفى بأن يعلم ما حدث ، بل سيصمم على أن يرى بنفسه .. لن يقاوم الإغراء .. وسيذهب ويأخذنى معه !.. عندئذ لن نعود أبدًا ..!..، لو أنه تفحّص الورقة وبدأ يحركها ، كما فعلت ، لربما عرف السرّ .. يجب أن أحرقها !

اتجهت نحو المدفأة لألقى فيها بالورقة ..

وهنا فتح الباب ودخل عمى ..

استطعت بصعوبة أن أخفى الورقة معيدًا إياها

لموضعها . وجلس عمى يواصل محاولاته ـ الفاشلة حتمًا ـ فى إعادة الترتيب لمدة ثلاث ساعات كاملة .. ومر الوقت مملاً حتى غفوت فى مقعدى ..

صحوت فى الصباح لأجده مازال يكافح المستحيل .. عيناه الحمراوان ، ووجهه الشاحب ، أخبرانى بالكثير .. بدأت أشعر بالحسرة من أجله ، خاصة وأنه كان منهمكًا إلى درجة أنه نسى العصبية ! ... لكن أسبابى كانت قوية .. إننى أعمل من أجل مصلحته .. ولهذا لن أنهى معاناته أبدًا .. دعه يجد السر وحده إذا استطاع ..

لكنى لم أتوقع إلى أى مدى ذهب عمى ..

حين استعدت (مارتا) للذهاب لجولتها المعتادة فى السوق ، لم تجد مفتاح الباب الأمامى .. وهنا فهمتُ .. لقد أخذه عمى ، ليجعلنا نتضور جوعًا عقابًا لنا على عدم فهمه للشفرة !... لقد صرنا سجينين مع عمى داخل المنزل إلى أن يجد حلاً ..

الساعة الثانية عشرة والجوع يمزقنى .. لكنى سأظل صامتًا ..

الساعة الثانية ظهرًا .. بدأت أفقد صبرى وبدأت أرى الأمور بشكل مختلف .. لربما لن يصدق عمى حرفًا من المكتوب فى الورقة .. سيعتبرها مزحة سخيفة .. بل إذا

فرضنا أنه صدق المكتوب وصمم على القيام بهذه الرحلة ، فمن الممكن دائمًا منعه .. أنا سأمنعه ..

لا جدوى إذن من الموت جوعًا ..

علىّ أن أخبره بالسرّ ، لكن بشكل غير مفاجئ حتى لا أثير ريبته ..

التقت عيناه بعينى فى هذه اللحظة فلاحظ ـ بلا مراء ـ شيئًا غير معتاد فى نظراتى .. أمسك ذراعى بحدة ونظر لى ثانية ، كأنما يسأل سؤالاً .. ولم يكن باستطاعته أن يسألنى سؤالاً أكثر وضوحًا ..

حركت رأسى بمعنى "نعم .. لقد وجدت مفتاح الشفرة .."

هز رأسه بمعنى "أنت معتوه" ، فحركت رأسى ثانية ، مما جعل عينيه تلتمعان ، وقبضته تزداد إحكامًا . أخشى إن صارحته بالحقيقة ، أن يهشمنى ، تعبيرًا عن عرفانه بالجميل ..

ناولته قطعة الورق التى عليها الكلمات التى أملاها علىّ .. وهمست :

ـ اقرأها ..!

ـ لكنها بلا معنى ..

ـ ليس إذا قرأتها بالعكس .. من آخر حرف حتى أول حرف ..

أصدر عمى صيحة فرح جنونية .. وبدأ يقرأ الورقة بصوت مرتجف بادئا من آخرها .. وكانت بلغة لاتينية رديئة حقًا ، لكنها واضحة ..

" انزل من فوهة (يوكول) (سنيفل) الذى يمسه ظل (سكارتاريس) بنعومة قبل بداية شهر يوليو أيها المسافر الشجاع . وستصل إلى قلب الأرض كما فعلت أنا " .
(آرنيه ساكنوسم)

ما إن قرأ عمى هذه الرسالة حتى وثب فى الهواء كمن أصابه مسّ ، وشرع يتقافز فى الغرفة ، ويركل قطع الأثاث .. بل — صدق أو لا تصدق — يطوّح أحجاره الثمينة فى الهواء ويتلقفها .. ثم بدأ يهدأ أخيرًا :

— كم الساعة الآن ؟

— الثالثة بعد الظهر ..

— إننى لم أتعشّ أمس .. أريد شيئًا آكله حالاً !.. وبعدها ..

— بعدها ..؟

— سأعدّ أكبر حقائبى ..!

— ولماذا ؟

قال البروفسير — عديم الشفقة — وهو يهرع لغرفة الطعام :

— ولتعدّ أنت أيضًا حقيبتك ..!!

عند سماع هذه الكلمات غاص قلبى فى قدمى ..!!

* * *

٢ — الرحلة ..

برغم هلعى تظاهرت أمام عمى بأننى موافق .. كنت أدرك أنه لن يصغى إلا لمنطق العلم .. وكان هذا المنطق فى صفى .. رحلة لقلب الأرض !.. ياله من هراء !.. ، يمكننى أن أناقش هذا فيما بعد .. أما الآن فتناول الطعام هو مهمتى الأساسية ...

وجلسنا نلتهم الطعام بينما عمى يثرثر ويمزح .. بل لقد ألقى — تخيل هذا — بعض الفكاهات ، الأمر الذى لم أعتده من قبل ..

وبعد أن فرغنا ، دعانى إلى مكتبه ..

قال لى وهو يجلس على المائدة :

— لقد قدمت لى الجواب يا (أكسل) فى الوقت الذى كدت أيأس فيه ، إنك لولد ذكى ، ولن أنسى صنيعك هذا ما حييت ..

ثم أردف :

— لكن هذا السرّ بيننا .. ثمة علماء يغارون منى ويرغبون فى سرقة هذه الرحلة .. لهذا لا ينبغى أن

يعلموا شيئًا عنها حتى نعود ..

ـ هل أنت واثق أن هناك الكثيرين ممن يرغبون فى ذلك ؟

ـ حتمًا ..! .. من ذا الذى لا يرغب فى كسب الشهرة والمجد ؟

ـ هذا هو ما أعنيه . لم لا تكون هذه المخطوطة مجرد دعابة حمقاء ؟

كنت ـ بالتأكيد ـ غير موفق فى كلمتى الأخيرة . وتوقعت أن ينفجر فى وجهى . لكن ابتسامة وديعة تلاعبت على ثغره وقال :

ـ هذا هو ماسنتحقق منه بأنفسنا !

ابتلعت ريقى .. وقلت :

ـ اريد أن أعرف معنى هذا الـ (يوكول) والـ (سنيفل) والـ (سكارتاريس) ..

ـ لا توجد صعوبة فى ذلك . من المصادفة أننى قد ابتعت هذه الخريطة الرائعة لـ (أيسلندا) من صديق لى فى (لايبتزيش) وعليها يمكننا أن نرى ما نريد .. انظر إلى هذه الجزيرة وبراكينها تجد أن كلا منها يحمل اسم (يوكول) أما (سنيفل) فبركان ارتفاعه خمسة الاف قدم على الساحل الغربى (لأيسلندا) .. وهو الذى

يقودنا لقلب الأرض ..

ـ لكن هذا مستحيل .. لابد أن فوهته مليئة بالحمم والصخور الملتهبة ..

ـ وماذا لو كان خامدًا ؟ .. إن عدد البراكين النشطة فى العالم لا يتجاوز ثلاثمائة . أما البراكين الخامدة ، فعددها يفوق ذلك بمراحل .. ومن بينها (سنيفل) الذى لم يعد أحد يسميه بركانا ..

ـ وما هو (سكارتاريس) هذا ؟

تنهد عمى :

ـ لقد كان (ساكنوسم) خارق الذكاء .. لابد أن (سنيفل) له عدة فوهات ؛ لذا احتاج الرحالة لتحديد أيها تقود لمركز الأرض ..! ولذلك أخبرنا أنه فى نهاية (يونيو) ترمى إحدى القمم ـ (سكارتاريس) ـ بظلها فوق الفوهة المطلوبة . أليس هذا واضحًا ؟

أسقط فى يدى ـ إذ من الواضح أن عمى يملك إجابة على كل سؤال ، إلا أننى ظللت امل أن اجد حججًا علمية ضد الرحلة ..

ـ إن العلم يؤكد أن هذه الرحلة مستحيلة .

أجاب عمى فى سخرية :

ـ العلم يقول هذا ؟ آه .. ياله من شىء مزعج

— العلم .. أليس محزنا أن يقول لك العلم إن الأشياء الممكنة مستحيلة ..؟

— إن العلم يقول إنك كلما توغلت لأسفل ازدادت الحرارة .. حوالى درجة مئوية لكل تسعين قدماً . ولما كان مركز الأرض يبعد أربعة آلاف ميل عن السطح ، فلابد أن حرارته تبلغ عشرين ألف درجة ، أى أن أصلب الصخور والمعادن تتحول إلى غاز ملتهب . فكيف تريد أن تزور مكانا كهذا ؟..

— أهى الحرارة التى تفزعك ؟ .. دعنى أقل لك يا (أكسل) إن العلم لا يعرف شيئاً أكيداً عن الأرض .. من زمن ليس بالبعيد ، كنا نظن أنه كلما ابتعدت عن الأرض كلما انخفضت الحرارة .. الآن نحن نعرف أن الحرارة لا تنخفض فى أى مكان بعيد عن الأرض لأقل من أربعين أو خمسين درجة تحت الصفر . لماذا لا يكون هذا الحال مع الحرارة ؟ .. أن تكون هناك نقطة لا ترتفع بعدها الحرارة مهما انخفضت ؟... ثم إن هناك ملحوظة أخرى .. لو كانت حرارة المركز كما تصفها لانفجرت الأرض .. إن معظم علماء (الجيولوجيا) يؤمنون أن قلب الأرض لا يحوى غازات ولا ماء وإلا كان وزن الأرض أقل مرتين مما هى عليه ..

— إنك تجعل الأرقام تثبت ما تريد ..

— تثبت الحقائق يابنى .. لا تنكر أن عدد البراكين فى تناقص مستمر ، وهذا على عكس المتوقع لو كان قلب الأرض غازاً ملتهباً .. وقتها ستتحرك قشرة الأرض كالبحر إبان المدّ والجزر تجاه القمر ، ولكانت الزلازل تحدث طيلة الوقت ..

كنت قد بدأت أتبين شيئاً من الصواب فى كلام عمى حين قال لى وهو يربت ظهرى :

— إننى أومن أن باطن الأرض ليس حاراً .. لكن دعنا نر ذلك بأنفسنا

• • •

تركت عمى وبدأت أذرع شوارع (هامبورج) شارد الذهن ملتهب الوجدان ، هل أنا مقتنع حقاً أم أن كلماته هى التى زينت لى هذه الفكرة المجنونة ؟ هل ما سمعته كلام رجل معتوه ، أم نبوءة عالم عبقرى ؟ أين تبدأ الحقيقة وأين تنتهى ؟!

كنت أسير عبر شاطئ النهر متجهاً للريف .. إلى (ألتونيا) ربما على أمل أن ألقى (جروبين)

وبالفعل رأيتها فى الطريق لدارها

صرخت فى دهشة :

كنت أسير عبر شاطئ النهر متجهاً للريف [illegible] (أنتوب) رغم عدم
أمل ان القى (جروبين) .. وبالفعل رأيتها ..

ــ (أكسل) !.. لقد جئت لتلقانى ...؟

ولكن ما إن رأت وجهى حتى توجست شراً

ــ ماذا حدث ؟

حكيت لها القصة بأكملها فلم تعلق لدقيقة كاملة .. ثم قالت :

ــ (أكسل) .. ستكون رحلة عظيمة .!

ــ ....!

ــ نعم .. رحلة تفخر بها .. وستجلب لك الشهرة ..، لكم أتمنى لو جئت معكما ، لكنى فتاة معدومة الحيلة ، ستزيد متاعبكما فقط ..

لا يمكن أبداً فهم هؤلاء النسوة .. فهن إما أن يكن مثال الجبن ، أو ذروة الشجاعة ، ولا دخل للمنطق فى هذا ..

ــ لربما غيّرت رأيك غداً ..

ــ غداً ــ عزيزى ــ سأقول نفس الشىء .

سرنا متشابكى الأيدى دون مزيد من الكلام . كنت منهكاً من جرّاء الأحداث الأخيرة ، إلا أننى واسيت نفسى بأن (يوليو) لم يزل بعيداً ، ولم يزل من الممكن أن تقع أشياء وأشياء تجعل عمى يعدل عن هذه الرحلة المشئومة ..

• • •

ولكن ما إن عدت للبيت حتى فوجئت بعمى يصرخ ويجرى من بين رجال يحملون البضائع للبيت . وقد بدا على خادمتنا العجوز أنها على حافة الجنون

ـ هلم يا (أكسل) !. تعال ! يا لك من مزعج . !. ألم تحزم حقائبك وترتب أوراقى بعد ؟

أصابنى الذهول ..

ـ إذن نحن ذاهبان ؟!

ـ حتمًا ! ما معنى حين تذهب للنزهة وتهمل استعدادات السفر ؟

ـ حقًا ذاهبان ؟!

ـ طبعًا بعد غد فى الصباح الباكر ..

لم أحتمل سماع المزيد ، فهرعت لغرفتى حين وجدت (جروبين) قد سبقتنى وهتفت فى حماس

ـ إن أبى رجل علم حق لا يخيفه شىء . ويجب عليك أن تكون فخورًا به يا (أكسل) . سينجح . أنا واثقة . ستعود بعد شهرين ، وستغدو رجلا حرًا فى كلامه .. حرًا فى أفعاله .. حرًا فى ....

وصمتت .. إلا إننى أدركت ما تعنيه . شعرت بشىء من الحماس ، إلا إننى حتى هذه اللحظة لم أكن قادرًا على استيعاب فكرة الرحلة . وفى كآبة أمسكت يد

(جروبين) مقتادا إياها إلى مكتب عمى

سألت عمى فى تردد :

ـ عمى .. أريد أن أفهم لماذا العجلة ..؟

ـ لماذا ؟.. لضيق الوقت طبعًا ..

ـ لكن اليوم هو السادس والعشرون من (مايو) .. ولم تزل نهاية (يوليو) ..

ـ وهل تظن أيها المعتوه أننا سننطلق (أيسلندا) بهذه السرعة ؟ إن هناك سفينة واحدة بين (كوبنهاجن) و (رايكيافيك) فى الثانى والعشرين من كل شهر . ولو انتظرنا حتى (يوليو) سنصل إلى (رايكيافيك) متأخرين بعد أن يسقط ظل (سكارتاريس) على الفوهة .. يجب أن نبلغ (كوبنهاجن) بأقصى سرعة ممكنة ..

وهكذا حزمت حقائبى بمعونة (جروبين) التى كانت هادئة ، كأنى فقط ذاهب إلى المدينة المجاورة . كيف أتركها .. كيف ؟..

مر اليوم التالى فى الاستعدادات والمزيد من المؤن والبضائع تتراكم فى الدار .. ثم نمت كحجر على فراشى . وكانت ليلة سوداء حلمت فيها بالبروفسير يجرنى لأعمق أعماق الأرض . وأنا أهوى .. أهوى .. أهوى فى حفرة عميقة بلا قرار ..

• • •

وفى الخمسة صباحا ذهبت لغرفة الطعام لأجد عمى يلتهم إفطاره فى عجلة .. كانت معدتى متقلصة والانهاك يفرو بدنى .. فى الخامسة والنصف وصلت عربة لنقل متاعنا إلى محطة القطار ..

كان عمى يودع (جروبين) حين التفتت نحوى .. وهمست :

ـ عزيزى (أكسل) .. أنت راحل الآن .. لكن عند عودتك ستجد زوجتك

لم أستطع أن أقول شيئا سوى:

ـ وداعًا يا حبيبتى (جروبين) ..

وفى السادسة والنصف وصلنا المحطة .. وفى السابعة تحرك القطار ..

• • •

بعد وصولنا الى (كيل) ركبنا القارب إلى (كوبنهاجن) .. وكان عمى يوشك على الجنون ويكاد يدفع القارب الى وجهته دفعًا .. فى (كوبنهاجن) توجهنا الى متحف (الجيولوجيا) حيث قابلنا البروفسير (تومسون) الذى كان يعرف عمى ولقد أبدى الرجل لنا حفاوة واضحة . وشرع يفتش عن قارب يقلنا إلى (أيسلندا) حتى وجد واحدا اسمه

(فالكيرى) كان سيرحل فى الثانى من (يونيو) إلى (ريكيافيك) ..

شرعت أنا وعمى نستكشف المدينة .. كنت أنا كطفل منبهر بكل شيء ، أما عمى فلم يبد اهتمامًا سوى ببرج كنيسة عالٍ على الجزيرة التى تشكل الجزء الجنوبى الغربى من (كوبنهاجن) .. لم أجد ما يسترعى اهتمامى سوى أن برج الكنيسة شديد الارتفاع أكثر من اللازم ..

ـ هلم نصعد لأعلى ..

قالها عمى وهو يجذبنى خلفه ..

ـ لكن هذا قمين بأن يثير لدىّ الدوار .. أنا لا ارتاح للمرتفعات ..

ـ هذا سبب كافٍ للصعود .. يجب أن نعتاد الأماكن الشاهقة .

ـ لكن ..

ـ هيا ..!

وهكذا لم أجد بدًا من الصعود .. درجة بدرجة .. مائة وخمسين درجة .. بعدها بدأت أشعر برأسى يطفو وبأن البرج يهتز مع الريح .. اضطررت أن أزحف على ركبتى ويدى مغلقًا عينىّ بصرامة .. حتى وصلنا إلى القمة ..

ـ انظر لأسفل .. يجب أن تعتاد ذلك ..

فتحت عيني فرأيت المنازل كالألعاب . وفوق رأسي تحركت السحب مارة عبر السماء لكنها بالنسبة لي كانت ثابتة .. خيل لي أن الأرض وبرج الكنيسة هما اللذان يتحركان .. ، وكنت أرى ساحل (السويد) من بعيد ..

استمر هذا الدرس ساعة كاملة .. وحين سمح لي عمي أخيرًا أن أنزل .. وحين لمست قدماي أرض الشارع ظننت لوهلة أنني قد فقدت القدرة على المشي إلى الأبد .. ، ولمدة خمسة أيام واظبنا على هذا العمل حتى أنني ــ بالرغم مني ــ بدأت أتعلم كيف أنظر لأسفل دون أن يصرعني دوار المرتفعات

وهكذا صرنا مستعدين لركوب الـ (فالكيرى) إلى (أيسلندا) ..

استغرقت رحلتنا عشرة أيام عبر (السينور) . ساحل السويد (سكجن) .. ثم بحر الشمال الرهيب .. بعدها عبرنا ساحل (اسكتلندا) .. وجزر (فارو) ، وفي اليوم الحادى عشر رأينا ساحل (أيسلندا) .

نظر عمي إلى الساحل الشمالي وأشار في لهفة إلى جبل عال له قمتان يغطيهما الجليد الأبدى .. وهتف :

ـ (سنيفل) !.. (سنيفل) !

ما إن نزلنا إلى الشاطئ حتى استقبلنا برجر حسن المحيا .. وكان هو حاكم (أيسلندا) البارون (ترامب) بنفسه .. وشد مصافحة عمي وتبادل معه حديثًا بالدنماركية لم أفهم منه حرفًا بطبيعة الحال ، إلا أنني استنتجت أن الحاكم يعد عمي بأن يبذل قصارى جهده لمعونته

كما تعرفنا على رجل لطيف الشمائل هو السيد (فريدريكسون) مدرس العلوم في مدرسة (ريكيافيك) الذي قدم لنا غرفتين في داره كي نقيم فيهما

قال عمي في سرور حين صرنا وحدنا :

ـ هيه يا (أكسل) ! الأمور تسير على ما يرام .
ولقد مرّ الجزء السيئ من رحلتنا ..

ـ ماذا تعني ؟

ـ لم يعد أمامنا سوى أن (نهبط) !

ـ لربما كنت على حق .. ولكن كما سنهبط علينا أن نصعد

ـ هذا لا يثير قلقي البتة .. سأذهب للمكتبة باحثًا عن كتب لـ (ساكنوسم) لأرى ـ ولأنه ـ وجد بعضها

ـ ألن تتجول في البلدة أولاً ؟

— نعم .. إن ما يهمنى فى (أيسلندا) ليس ما هو فوق الأرض بل ما تحتها !!

على أنه عاد بعد ساعات وقد بدت عليه مخايل الاحباط ، لأنه لم يجد أية كتب لـ (ساكنوسم) هناك ، وأخبرنا مضيفنا السيد (فريدريكسون) أن الكنيسة قد اعتبرت ذلك الرحّالة عدواً لها ، وأحرقت كل كتاباته ، الامر الذى فسر لنا سرّ كتابته رسالته بالشفرة ..

وهنا ـ لدهشتنا ـ اقترح السيد (فريدريكسن) على عمى أن يقوم باستكشاف البركان المسمى (سنيفل) لأهميته ..!

— هل هو خامد ؟

— نعم .. منذ خمسة قرون ..

— حسن .. ربما كان من الواجب أن أذهب لأراه .. أ..أقلت لى ما اسمه ؟

— (سنيفل) ..

كدت انفجر ضحكاً وأنا أشاهد عمى يتصنّع الجهل ليدارى لهفته المجنونة لرؤية البركان ، خاصة والفرصة قد جاءته على طبق من الفضة ، ودون إثارة الشكوك ..

سأله السيد (فريدريكسن) ..

— كيف تنوى الوصول إليه ؟

— بالبحر طبعًا ..

— مستحيل .. إن كل القوارب مشغولة بالصيد فى الناحية الأخرى من الجزيرة ، لهذا ينبغى الذهاب برًا .. طريق طويل لكنه مسلٍ .. وعندى لك دليل مأمون الجانب ويمكنك الاعتماد عليه .. إنه شخص ماهر ويتحدث الدانمركية بطلاقة ..

• • •

استيقظت فى الصباح التالى على صوت عمى يتحدث الدانماركية مع أحدهم .. رجل طويل القامة ، متين البنيان وله وجه بسيط قسيم .. كانت عيناه زرقاوين فى حين تنسدل خصلات شعره الأحمر على كتفيه ... وكان الهدوء يشعّ من وجوده ، كأنما لا يمكن لشىء فى الكون أن يزعجه ..

كان اسمه (هانز بايلكى) .. دليلنا القادم فى رحلتنا ، وكان على النقيض من عمى فى كل شىء ، إلا أنهما لم يختلفا حول المادة والأتعاب بتاتًا .. فواحد مستعدّ تمامًا لقبول أى أجر وواحد مستعدّ تمامًا لدفع أى أجر .. صفقة بسيطة جدًا كما ترى ..

تم الاتفاق على أن يقودنا (هانز) إلى قرية (ستالى)

عند سفح البركان .. وكانت المسافة اثنين وعشرين ميلا. تلك المسافة التي قدر عمي أننا سنقطعها في يومين .. إلا أنه حين أدرك أن العمق المركزي يساوي أربعة وعشرين ألف قدم، فهم أن الرحلة لن تقل عن أسبوع كامل!

وحصلنا على أربعة خيول .. اثنين لي ولعمي واثنين للمتاع. أما (هنز) فسيمشي كما عهدناه دائما، وقد رفض أن ينال أجرًا قبل أن نصل..

ـ رجل طيب ..

قالها عمي وأردف:

ـ لكنه لا يدرك أي مجد ينتظره بعد رحلتنا!

ـ هل تعني أنه سينزل معنا إلى ..؟

ـ نعم يا (أكسل) .. إلى مركز الأرض ...!

• • •

٣ ـ البركان...

قبل الرحيل بدأنا نرتب متاعنا والأشياء التي سنحملها معنا .. ولكن من بينها ما هو جدير بالذكر:

١ ـ ترمومتر يمكنه القياس حتى مائة وخمسين درجة مئوية .. وقد بدا لي هذا أقل مما يجب وأكثر مما يجب. أقل من درجة حرارة مركز الأرض كما أتوقعها. وأكثر من أي حد يمكننا تحمله قبل أن نتحول لشواء!

٢ ـ جهاز بارومتر خاص لقياس الضغوط الهائلة التي ننتظرها.

٣ ـ جهاز كرونومتر يرينا الزمن حسب موقع (هامبورج).

٤ ـ بوصلتان.

٥ ـ مصباحان كهربائيان مأمونان وسهلا الحمل ..

ولكن معنا بندقيتين، لا أرى مبررًا لحملهما .. وسلم من الحبال .. وفأس ومطرقة .. أما الطعام فكان في صورة مسحوق ولحم مقدد يكفينا نحو ستة شهور

ولم نحمل ماء ، لأن عمى كان واثقًا من المياه الجوفيه !

من الصعب أن أتذكر كل العجائب التى حملناها معنا . إن عمى لم ينس شيئًا حتى النقود ! لقد حمل معه مبلغا كبيرًا ، كأنه كان يتوقع وجود محلات فى مركز الأرض ..

فى الليلة الأخيرة ودعنا مضيفنا .. وفى الساعة السادسة صباحًا ، كان (هانز) ينتظرنا بهدوئه المعهود لنبدأ رحلتنا نحو المجهول

• • •

شرعت أتأمل معالم الطريق شاعرًا بنشوة .. أى خطر هنالك ؟..

كل ما علىّ هو أن أقطع هذا البلد العجيب .. وأتسلق بركانًا خامدًا وأنزل عبر فوهته مثلما فعل (ساكنوسم) الذى ـ وأنا واثق من هذا ـ وصل إلى قاع البركان فظن أنه وصل لمركز الأرض . هذا هو كل شىء إذن فلأنعم برحلتى هذه ولا أعبأ بالبقى ..

كان (هانز) يسبقنا فى السير عبر حقول حاولت جهدها كى تكون خضراء ، إلا أنها فشلت فى الوصول إلا إلى اللون لاصفر . ومن بعيد تتراءى الهضاب يكسوها

الجليد ... الطريق يتعرج ، لكن خيولنا تعرف أفضل الطرق للسير وتتحرك برشاقة وخفه ..

ـ حصان طيب ! حصان طيب ! . سترى يا (أكسل) أنه ما من شىء أكثر روعة من خيول (أيسلندا) .. لا شىء يوقفها .. لا البرد ولا العواصف ... فقط لا تضايقها .. دعها بحريتها وستقطع بك ثلاثين ميلاً فى اليوم ..

ـ هذا يناسبنا .. ولكن ماذا عن دليلنا الباس ؟

ـ لا عليك . هؤلاء الرجال لا يشعرون بالأرض ولا يتعبون أبدًا .. وحتى إذا ما تعب ساعيره جوادى ولمشى أنا ..

• • •

كانت الساعة تقترب من الثانية عشرة ظهرًا حين وصلنا إلى قرية تدعى (إيولبرج) . ومن هناك بدأنا نتبع طريقًا ضيقًا ، ما بين البحر والمرتفعات .. فى الساعة الرابعة عصرً صادفتنا عقبة .. هى لسان من البحر يتغلغل عبر اليابسة وكانت أمواجه تصطدم بالصخور الشامخة على جانبيه ، ولئن كانت جيادنا جيادًا طيبة إلا أننى لم أدر كيف يمكنها العبور ، قلت لنفسى :

ـ لو كانت ذكية حقًا فلن تحاول أصلاً .

الا أن عمى لم ينتظر بل حاول العبور بحصانه أبى الحصان أن يتحرك .. قال له عمى (نعم) الا أن الحصان قال (لا) . . ازداد جنون الرحل وضرب الحصان الذى حاول أن يقذفه من على ظهره ، ثم أنه وجد أن الافضل أن ينحنى على ركبتيه وينسل من تحت راكبه تاركا يده واقفا على الارض !..

حن جنون عمى إلا أن (هانز) ربت على ظهره قائلاً

ــ فاريسا ..

ــ قارب ؟.. أين ؟..

أشار (هانز) إلى قارب على مسافة منا .

ــ لماذا لم تقل ذلك ؟. فنذهب لنأخذه .

ــ تيدفاتن .

ــ آه !.. يجب انتظار الغد إذن ..

وهكذا ــ فى السادسة مساء ــ وصلنا قرية (جاردار) لم تكن السماء مظلمة ، لأن الشمس لا تغيب عن السماء فى (أيسلندا) طوال شهرى يونيو ويوليو حتى فى الليل وفى أحد الاكواخ قضينا ليلتنا لنعاود التحرك مع أول أنسام الفجر ..

ــ الاحساس بالوحشة يتزايد ونحن نجد السير . بعد هذا سحر ولا حيوانات .. فقط طير هنا أو هناك

يحلق نحو الجنوب ..

وفى قرية اسمها (الفتاناس) قضينا ليلة أخرى كان الانهاك يقتلنى ، أما عمى فلم يشك إطلاقًا ، مما أثار إعجابى أما عن (هانز) فكان ينظر للرحلة كلها على أساس أنها نزهة شيقة ..

واستمرت الرحلة عبر خليج (فاكسا) ثم (بودير) وكان (هانز) قد اتفق مع عمى على أن ينال جزءًا من أجره فى كل مساء سبت ، لذا ــ وكان اليوم السبت ــ نقده عمى الجزء الأول من الأجر .. وشرعنا نواصل رحلتنا ، بينما كان عمى يهمس ما بين أسنانه طيلة الوقت .

ــ آه ! (سنيفل) ! (سنيفل) العظيم ! البوابة التى ستقودنا الى مركز الأرض (ساكنوسم) ! أيها العظيم .. نحن هنا ..

وعلى هذا المنوال وصلنا إلى (ستابى)

صارح عمى (هانز) بأنه يزمع التسلق إلى البركان والنزول إلى القاع عبر فوهته مهما كان بعد هذا القاع لم يبد (هانز) فارقًا ، لأن كل الاماكن ــ كما يبدو ــ تتساوى عنده . اما أنا فقد كان الهلع يقتلنى لكن أوان التراجع قد فات منذ فارقنا (همبورج) إن

كـ. لا أجد نفسي [illegible] مع عمي [illegible] مما أثار ضحكي

الخاطر المريع الذى انتابنى هو أننا قد نتسلق (سنيفل) .. وقد ننزل من فوهته . وقد نصل لمركز الأرض كما فعل ذلك المخبول (هاكنوسم) لكن ما هو الضمان أن هذا البركان لن يثور ونحن فيه ؟ نعم هو نائم منذ عام ١٢٢٩ ولكن هل هذا يثبت أنه لن يصحو غدًا ؟

لا أحب كثيرًا ـ وأنت توافقنى غالبًا ـ فكرة أن أجد نفسى مقذوفًا إلى عنان السماء فى بحر من الحمم الملتهبة .

وهكذا أزمعت أن أفضى لعمى بمخاوفى ، ولكن بشكل لا يوحى له أننى مذعور ، بل أننى ـ فقط ـ أريد أن أتعلم أكثر عن رحلتنا .. إلا أنه لشدة دهشتى لم يثر . وقال :

ـ لقد فكرت فى ذلك كثيرًا ..

ماذا ؟ لكن هذا معناه كلا . لن يتراجع هذا الرجل أبدًا .. إن هذا أجمل من أن أفكر فيه ... إلا أنه أردف :

ـ إن البراكين لا تثور هكذا فجأة دون علامات إنذار ، ولقد سألت الكثيرين هنا وهناك منذ وصلنا .. والنتيجة سلبية .. لم يعط (سنيفل) أية علامات تنذر بتجدد ثوراته ..

ثم إنه أشار إلى بخار ساخن يخرج من بين الصخور (وهو الشيء الذي جعلني أميل لوجهة نظري المذعورة) وقال :

ـ هذا البخار هو الدليل على صدق كلامي .. لن نخشى شيئا ..

ـ ماذا تعني ؟

ـ حين يوشك البركان على الانفجار، يخرج هذا البخار بقوة أكبر من الفوهة، وليس من بين الصخور .. أما والبخار يخرج بقوته المعتادة من بين هذه الأحجار فلن يثور (سنيفل) في المستقبل القريب ..!

لقد ربح عمي كالعادة ولم أعد سيد مصيري

وهكذا .. في اليوم الثاني والعشرين من (يونيو) في التاسعة صباحا بدأنا رحلة التسلق إلى فوهة (سنيفل) ..

• • •

يبلغ ارتفاع (سنيفل) خمسة آلاف قدما .. ولقد شرعنا نصعد صفا واحدا خلف الآخر مما جعل تبادل الكلام مستحيلا ..

كان الطريق يزداد صعوبة ويميل لأعلى بزاوية أشد

حدة .. الآن (هانز) كان يمشي في سلاسة .. كما لو كانت الأرض مسطحة .. أحيانا كان يختفي عن عيوننا يمينا أو يسارا خلف صخرة كبيرة، وأحيانا كان يضع بعض الأحجار فوق بعضها، ليصنع منها علامات عند عودتنا ..

كانت فكرة لا بأس بها لكنها ـ كما عرفت فيما بعد ـ لم تكن ذات نفع ..!

توقف بعد ثلاث ساعات لنتناول بعض اللقيمات والراحة الأمر الذي لم يرق لعمي لذا التهم طعامه في عجلة ثم واصلنا المسير الذي غدا شديد الصعوبة، مما اضطرنا إلى السير في دروب متعرجة. وكان معنا ثلاثة حمالين من الوطنيين شرعوا يعاونون بعضهم البعض .. أما عمي فكان يتنقل برشاقة وخفة، مما جعلني أدرك أن له باعا طويلا في تسلق الجبال.

إنها السابعة مساء. وقد بلغنا ارتفاعا قدره ٣٢٠٠ قدم فوق سطح البحر .. الجليد من حولنا والبرد يتزايد والريح تهب عاتية .. طلب عمي من (هانز) التوقف لكن دليلنا قال :

ـ أوففانفور ..

قال عمي مفسرا :

- انه ينبغى أن نواصل الصعود . ولكن لماذا ؟
- ميستور ..
عندئذ هتف الحمالون جميعًا فى ذعر حقيقى :
- يا .. يا .. ميستور ..!
- ماذا يعنون ؟
وهنا أشار عمى إلى كتلة من الصخور والغبار البركانى تتطاير فى الهواء عبر جانب الجبل . وكانت هذه الكتلة تتجه نحونا - ما يسمونه باللغة الأيسلاندية (ميستور) - ولم يكن ثمة داع للمزيد من الكلام لأننا هرعنا خلف الجبل متوارين . على حين هوت هذه الكتلة على المكان الذى كنا به منذ دقائق . ولولا تحذيرهم لغدونا غبارًا تذروه الرياح ..

• • •

كانت الساعة هى الحادية عشرة مساء حين وصلنا إلى القمة وكان البرد والجوع يمزقاننى . بالاضافة الى أن نقص الاوكسجين جعل التنفس مستحيلا وعند قدمى كانت شمس منتصف الليل ترسل أشعتها الواهنة فوق الجزيرة ..

مع تناولنا وجبة بسيطة ثم غفونا .. لعله أفضل نوم حظيت به من زمن بعيد برغم برودة الجو . نوم بلا أحلام

وفى الصباح أخبرنا (هانز) بالاسم الذى يطلقه سكان (أيسلندا) على القمة التى كنا فوقها . الاسم الذى توقعته أنا وعمى ..
كان اسمها (سكارتاريس) ..!

• • •

وبدأنا النزول من الفوهة ..
كان اتساعها حوالى ثلاثة أميال ويمكنك أن تتخيل منظرها حين تملؤها النيران والصخور الملتهبة !. أما القاع - كما بدا لنا - فلم يكن ليزيد على خمسمائة قدم ، لهذا كان الانحدار سهلاً ويمكن السير عليه دون جهد .
سار (هانز) فى المقدمة وتبعناه وقد ربط بعضنا بالبعض بحبل طويل حتى إذا ما انشقت الارض الجليدية تحت قدمى أحدنا أنقذه الباقون . الا أن (هانز) كان يتحسس الارض بعصاه للاطمئنان قبل كل خطوة وهو يشعر بالدهشة من أنه لم تحدث مصائب حتى هذه اللحظة على عكس ما اعتاده ..!
وصلنا لقاع البركان . ومن فوق رءوسنا نلمح فوهته مرسومة على السماء مستديرة تامة الاستدارة ومن خلالها نلمح قمة (سكارتاريس) تلتمع الشمس عليها ..

ـ في قاع البركان شاهدت هذه الثلاث فتحات هي قمم
المداخن التي منها كانت [illegible] البركان [illegible] . وكانت
كل منها تتسع لمسافة قدم [illegible] شعرت بالرجفة
وأنا أرمقها ، على حين [illegible] البروفيسور (ليدنبروك)
حمي [illegible] وشرع يركض بين الفتحات يرمقها
ويفحصها ويحدث نفسه [illegible] (هانز) ورفيقه
[illegible] على الصخور [illegible] يحتسون [illegible]
أي مجنون هذا ؟!
وفجأة صرخ عمي ..
ـ (أكسل) !.. (أكسل) !.. تعال هنا ..
[illegible] وهو يرمق صخرة عملاقة تقف في وسط
الفوهة .. فجريت لأرى ما هنالك ..
ـ انظر !
وعلى الصخرة لمحت حروفاً محفورة تقادم عليها
الزمن .. حروف (رونية) متآكلة بالنسبة لي
الحروف التي تشكل ذلك الاسم الشنيع :
ـ (آرني ساكنوسم) [illegible] هل ما زلت متشككاً ؟
[illegible] وجلست فوق صخرة [illegible]
[illegible] (هانز) عينيه [illegible]
[illegible] ولا متى
غفوت أنا ..

وخلال نومي خيل إليّ أن الجبل يهتز
• • •
لم تشرق الشمس في الأيام التالية بسبب الغيوم
كان عمي يجن لأنه ما لم تشرق الشمس فلن يسقط
ظل (سكارتاريس) ليرينا الفوهة الصحيحة بين الفتحات
الثلاث .. فقط أربعة أيام أخرى وينتهي شهر (يونيو)
ويتأجل مشروعنا إلى العام التالي ..
كان [illegible] يرمقنا في فضول متسائلاً ـ حتماً ـ
عن علة انتظارنا .. أما أنا فظللت أدعو الله سراً ألا
تشرق الشمس هذا الشهر ..
وفي اليوم السادس والعشرين أشرقت الشمس ،
وبدت الهضاب تستحم في ضوئها الأصفر البارد ..
راح عمي يرمق ظل (سكارتاريس) يتحرك فوق قاع
البركان ببطء .. ببطء ..
ثم ـ في الثانية عشرة ظهراً ـ سقط الظل فوق
الفتحة الوسطى .. الفتحة التي اختارها (ساكنوسم) .
ـ إذن هذه هي .. ! .. هلمّ بنا ..!
وأشار عمي إلى (هانز) ..
ـ فوروت .. ! .. إلى الأمام ..!
الآن تبدأ الرحلة الحقيقية ..

الآن تنتهي مرحلة الإنهاك لتبدأ مرحلة الصعاب ..

لا تزل الفرصة متاحة لي كي أرفض . لكن كيف أجرؤ على ذلك أمام (هانز) الذي لا يبدو على استعداد لأن يخاف شيئًا ؟ كلا . سأفكر في (جرويبن) التي تنتظر عودتي المظفرة ولأنزل بشجاعة عبر الفتحة لكن لا يجب أن أدع الدوار يتملكني لأنني فيما يبدو لم أتلق ما يكفي من الدروس في تلك الكنيسة بـ (كوبنهاجن) ..

لم تكن جدران الفتحة التي سننزل منها ملساء كانت هنا وهناك صخور حادة تشبه درجات السلم إلا أنه لم يكن ثمة ما نتشبث به أيدينا . لربما أفادنا حبل نربطه إلى الحافة ، لكن كيف عسانا نحله حين نصل لأسفل ؟..

وجد عمي فكرة بسيطة وذكية هي أن يدلي نصف الحبل إلى أسفل ثم يلف الحبل حول صخرة بارزة ويدلي النصف الآخر ليلحق بزميله ، وهكذا يكون على من يهبط على الحبل أن يستخدم النصفين معًا كأنهما حبل واحد وعند الوصول إلى مكان يصلح للوقوف ، فمن السهل جذب نصف واحد من نصفي الحبل لاستعادته بأكمله .. ونكرر العملية ..

« — والآن ليأخذ كل منكم ثلثًا من المتاع ويربطه على ظهره ..

— ولكن ماذا عن باقي الحبال والثياب ؟

— ستعنى هذه بنفسها ..!

— ماذا تعني ..؟

— سترى ..

وبمعونة (هانز) حزم عمي هذه الأشياء في حزمة كبيرة وقذفها إلى أسفل . كان باستطاعتي سماع صوتها وهي تشق الهواء وصوتها يتضاءل يتضاءل حتى تلاشى نهائيًا .

— هكذا .. ! .. والآن جاء دورنا ..

والآن دعني أسألك بأمانة .. هل يمكن لأي شخص بكامل قواه العقلية ألا يموت هلعًا في هذه الظروف »؟.

كيف أتحمل كل هذا ؟

على كل حال .. بدأنا عملية النزول ..

إلى مركز الأرض ..

• • •

٤ ــ أى ممر ؟

بدأ النزول على الحبل المزدوج متجاهلين الخطر المتمثل فى ألا يتحمل هذا الحبل ارتفاع ثقلنا معًا. شرعت أستخدم عصاى كوسيلة لتخفيف الضغط عن هذا الحبل. وبعد نصف ساعة وجدنا أنفسنا على صخرة كبيرة مسطحة تبرز من الجدار الرأسى ..

نظرت إلى أسفل. لكننى لم أتمكن من رؤية أى شىء ..

شرع (هانز) يعيد تعليق الحبل من جديد لنهبط المرحلة التالية التى يبلغ عمقها مائتى قدم وسطيع ــ فى أثناء هبوطنا ــ لم أكن لأهتم بمعرفة نوعية الصخور التى نهبط عليها. إلا أن عمى ــ بفضول علمى فذ ــ شرع يتفحصها فى اهتمام وقال :

ــ كما توقعت تمامًا أن باطن الأرض ليس حارًا.

وعلى كل حال سوف نرى ..

وكلما عنت طلبة حاتى نحسب الدرجة خنقه ونهد

افترض أننى أوافقه على ما يقول ..

واصلت النزول وبعد ثلاث ساعات كاملة، لم يكن القاع ظاهرًا لأعيننا بعد .. لكننا استمررنا فى النزول لأسفل لأسفل لأسفل أزجى الوقت بعد المرات التى فككنا فيها الحبل وأعدنا تعليقه. لأعرف إلى أى عمق وصلنا. وكان عددها أربع عشرة مرة استغرقت من سبع ساعات. وبالتالى كنا على عمق ٢٨٠٠ قدم

قال عمى وهو يلهث :

ــ لقد وصلنا.

ــ لأين ؟

ــ لقاع البركان ..

ــ إذن لا يوجد مخرج. لقد انتهت رحلتنا

ــ لابد أن هناك واحدا على يميننا. لكن سنرى ذلك غدا، أما الآن فقد حان ميعاد النوم. وبالطبع العشاء ..

وهكذا فتحنا حقيبة والتهمنا بعض الطعام، ثم هيأنا أنفسنا كيفما اتفق، لننام فوق الصخور.

استلقيت على ظهرى وشرعت أرمق نجمًا يتألق عبر الفتحة التى نزلنا منها. حتى غلبنى النعاس

• • •

فى الصباح أيقظنا ضوء النهار الخافت قادمًا من أعلى .. بالطبع لم يكن قويًا ، لكنه سمح لنا برؤية الموجودات ..

قال عمى فى مرح مرعب :

ــ كيف حالك يا (أكسل) ؟ هل نعمت من قبل بليلة هادئة كهذه فى دارنا العجوز بشارع (كونيش) ؟ . لا ضوضاء من أى نوع .

ــ بالطبع هادئة .. هادئة إلى حد مفزع .

صاح عمى :

ــ هلم .. هلم ! إذا كنت تشعر بالرعب الآن فكيف ستشعر فيما بعد ؟

اننا لم نتجاوز بوصة واحدة داخل الأرض !

ــ ماذا تعنى ؟؟ ..

ــ أعنى أننا لسنا حتى تحت مستوى البحر .. إننا فقط نزلنا المسافة التى صعدناها حين تسلقنا (سنيفل) ..!!

ــ حقًا ؟

ــ طبعًا .. انظر إلى (البارومتر) ..

ــ إنه يشير إلى تسعة وعشرين بوصة ..

ــ هكذا .. هذا هو ضغط الهواء العادى .. وهذا يؤيد

كلامى .. والآن دعنا نتناول وجبة إفطار جديرة برجال ينتظرهم عمل شاق ..!

وأكلنا فى صمت . بعدها جلس عمى يدون قراءات (الكرونومتر) و (الترمومتر) . البارومتر) . ثم قال :

ــ والآن يا (أكسل) هذه هى النحطة بعينها التى سنبدأ فيها رحلتنا إلى قلب الأرض

وأضاء الكشاف الكهربى وكذا فعل (هانز) .. واتجه عمى نحو النفق الموجود على اليمين ودخله .. وقبل أن أتبعهم رفعت عينى إلى السماء لأرى ــ لآخر مرة فى حياتى ــ ضوء النهار ..

كانت الحمم هى التى صنعت هذا النفق لنفسها عام ١٢٢٩ حين ثار البركان آخر مرة . وكانت جدرانه مغلفة بطبقة معدنية براقة، مما أكسبه جمالا لا يوصف

ــ انظر لهذه الروعة يا عمى !

ــ آه !.. أنت تحبها يا (أكسل) . واننى لآمل أن ترى أشياء أكثر روعة بالداخل .. فلنتقدم !

كان الأحرى أن يقول .. فلنتزلق ! لأن الممر كان منحدرًا إلى حد لا يوصف ، مما جعل من العسير حقًا ألا ننزلق ..

إلا أن الحرارة لم تزدد إلا أربع درجات داخل النفق حتى بعد ساعتين من المشى . وفى الثامنة مساءً أمرنا عمى بالتوقف داخل أحد الجيوب الصخرية . فعلقنا مصباحينا على الصخور .

قد يظن القارئ أن الهواء كان ساكناً ، لكنه كان فى الواقع يتحرك وكنت أستشعر هبات من الريح لا أدرى مصدرها ، لأن الجوع والإجهاد كانا يمنعاننى من التفكير المنطقى إن سبع ساعات من الانزلاق ليست بالأمر الهين ..

كان القلق يساورنى ... فها نحن قد أتينا على نصف مخزون المياه الذى نزلنا به ، وكان عمى يعول على الينابيع الجوفية لكننا حتى هذه اللحظة لم نجد واحداً . لهذا رأيت أن ألفت نظره ، فقلت :

ـ هل هذا يثير قلقك ؟

ـ حتماً ... قلقى ودهشتى ... إن ما معنا من ماء لايكاد يكفى خمسة أيام ..

ـ لا تدع هذا يقلقك ... سنجد الماء وبكميات وافرة

ـ متى ؟

ـ حين نخترق حوائط الحمم ... إن ماء الينابيع عاجز عن اختراقها ..

ـ وماذا لو ظلت هذه الحوائط لفترة طويلة ؟ ... من الواضح أننا لم ننزل كثيراً بعد ..

ـ ولماذا يوحى لك بهذا ؟

ـ لأن الحرارة لم تزدد بعد سوى تسع درجات وهذا معناه أننا لم نهبط سوى ١١٢٥ قدماً

ـ هذا يابنى لو كانت قواعدك الحرارية سارية هنا .. إننى واثق تماماً بحساباتى من أننا قد هبطنا عشرة آلاف قدم .. ولا شك فى ذلك ..

إن كلام عمى صحيح بلا ريب ... فهو لا يخطئ فى شىء كهذا ، ومعنى ذلك أننا قد تجاوزنا أقصى عمق بلغه إنسان بـ ٦٠٠٠ قدم ... وكان ينبغى أن تكون الحرارة احدى وثمانين درجة لا خمس عشرة .

وفى اليوم التالى واصلنا السير فى الممر وفجأة توقف (هانز) ..

لقد كان هناك ممران ... واحد أيمن وواحد أيسر وهذا معناه مشكلة ... فأيهما المطلوب ؟

لم يتردد عمى واختار أحدهما وشرعنا نمشى فيه لكن هذا خطأ لكننا لم نعرف ذلك إلا بعد أيام عديدة

ولم يكن هذا الممر منحدراً بل يكاد يكون أفقياً . لم

وفجأة توقف (هانز) .. لقد كان هناك ممران واحد أيمن وواحد أيسر وهذا معناه مشكلة ..

أحب هذا الشعور .. وانتابني إحساس أن شيئًا مًا ليس على ما يرام ، لكني كتمت عن عمي هذا الشعور . لقد مضينا في الممر ستة أميال حقًا لكننا لم نهبط أكثر من ميل واحد ..

تناولنا العشاء في صمت ثم أخلدنا للنوم ..

وفي الصباح واصلنا مسيرتنا عبر هذا الممر .. هذه المرة كنت واثقًا تمامًا من أنه لا يهبط بل هو بالأحرى يصعد .. لابد أن الأمر كذلك لأنه ـ حين صارت الساعة العاشرة ـ كنت قد بلغت من التعب مبلغًا كبيرًا ولم يعد بإمكاني الاستمرار ..

هتف عمي في نفاد صبر :

ـ ماذا دهاك يا (أكسل) ؟ لم لا تسرع ؟

ـ يجب أن أتوقف .. لقد هدني التعب ..

ـ ماذا ؟ .. بعد ثلاث ساعات في طريق منحدر ؟

ـ منحدر نعم . ولكن لأعلى ! . نحن نصعد ، ولن يستغرق الأمر طويلاً حتى نعود إلى (أيسلندا) ثم (كوبنهاجن) ثم دارنا في (هامبورج) !

إنه طريق جيد للعودة ، لكنه لا يناسب تمامًا غرض الوصول لمركز الأرض ..

لكن عمي هزّ رأسه في لامبالاة ، بمعنى أنه لا يريد

أن يسمع كثر . ووصلنا مسيرتنا المنهكة عبر النفق ..
في الساعة الثانية عشرة بدأت الجدران تتغير .. وبدلا
من الحمم المتجمدة بدأت أرى صخورا غريبة منسقة
في مجموعات منتظمة . لا بد أنها كانت تنتمي للحقبة
(السيلورية) ..

هتفت في دهشة مناديا عمي وأنا أشير إلى ما يحيط
بنا من أحجار رملية وأحجار جيرية وأردواز :

ـ انظر يا عماه !

ـ ماذا ؟

ـ نحن أولاء قد فارقنا الحمم والجرانيت تحتنا ،
ووصلنا إلى حيث حفريات الحيوانات والنباتات . أي
أننا نصعد ..

ـ أتظن هذا حقا ؟

توقعت أن يصرخ عجبا ، إلا أنه استمر في السير
دون تعليق !

هل فهم مغزى كلماتي ؟ هل هو غير راغب في
الاعتراف بخطئه أم أنه يبغي اجتياز الممر حتى نهايته ؟

على كل حال .. إذا ما كنت مصيبا سأرى حفريات
نباتية وحيوانية تدعم وجهة نظري . وبعد مائة خطوة
رأيت على الحائط ما يؤكد أنني على حق ..

هرعت إلى عمي لأريه الحفرية التي في يدي :

ـ أترى ؟ ..

ـ حسن .. هذه حفرية عادية وشائعة . وعندي منها
مئات في داري .

ـ لكنها تعني ..

ـ نعم .. نعم .. تريد أن تقول أننا اخترنا الممر الخطأ
وأننا ـ كما تؤكد ـ نصعد بدلا من أن نهبط .. لكنني
لن أتأكد من ذلك إلا عند نهاية الممر ..

ـ أنت محق يا عمي .. محق تماما في حيطتك هذه
ثم ابتلعت ريقي وأردفت :

ـ لكن هناك خطرا يهددنا .. خطرا يتزايد في كل
دقيقة

ـ ماذا تعني ..؟

ـ إن الماء يتناقص باستمرار ..

قال عمي في برود :

ـ إذن سنشرب كميات أقل .. ! هذا هو كل شيء .

* * *

لم يعد لدينا من الماء سوى ما يكفي ثلاثة أيام
وكنا ماضين في طريقنا بينما الأحجار لم تزل كما
هي .. أحجارا رملية حمراء .. إن الأمر يتضح أكثر

وأكثر .. إننا في الممر الخطأ إلا أن البروفسير (ليدنبروك)
لم يبد أية علامة تدل على الاهتمام .. إما أنه كان
يتوقع أن يجد فجأة ممرًا هابطا لأسفل .. وإما أنه كان
يتوقع أن يجد سدًا في الممر من ثم نعود أدراجنا .

لكن شيئا من هذين لم يحدث ..

كان ظمئي يتزايد تدريجيا حين وجدت أحجارًا سوداء
على الجدار . أحجارًا لامعة تترك بصمات سوداء على
يدي حين لمستها بالصدفة .. إنه فحم !

لكن عمي لم يهتم بالأمر كثيرا حين أخبرته ..
وجلس يلتهم طعام العشاء في صمت ..

كان ما شربناه كافيا بصعوبة ليروي ظمأنا .. وحين
غرق عمي و (هانز) في النعاس ظللت راقدا على
ظهري ، أعد الساعات حتى الفجر .. وحتى بدأنا السير
مرة أخرى .. .

وصلنا لكهف ضخم اتساعه مائة قدم ، وارتفاعه
خمسون قدما وجدرانه من الفحم . وظللنا نمشي فيه
حتى المساء دون أن نشعر للحظة واحدة أننا ندنو من
مركز الأرض ..

هل يمكنك أن تتخيل مدى نفاذ صبر عمي . ؟

وفي السادسة مساء وصلنا لحائط رأسي بلا فتحات

يسد الكهف .. لقد كانت هذه نهاية الرحلة !

ــ رائع ..!

ــ صرخ عمي

ــ على الأقل فهمنا أننا كنا في الطريق الخطأ وأن
(ساكنوسم) لم يصل هنا أبدًا . كل ما علينا الآن هو
أن نعود أدراجنا لنأخذ النفق الآخر .. !

ــ بالفعل .. لو بقيت لدينا قوة ..!

ــ وما المشكلة ؟

ــ المشكلة أننا غدا لن نجد قطرة ماء واحدة ..!

وهنا ــ ولشدة الغرابة ــ ذكر (هانز) عمي أن
اليوم هو السبت وأن الوقت قد حان لأخذ الجزء الثاني
من أجره ..!

• • •

يجب أن نتحرك الآن بأقصى سرعة

لا وقت نضيعه .. إذا ما كانت أمامنا ثلاثة أيام
حتى نصل إلى نقطة تلاقي الممرين .

وكما قلت لك .. انتهى الماء في مساء اليوم الأول .
وبالطبع لا يمكنني أن أبين لك كم عانينا من الظمأ .. كم
مرة هويت للأرض عاجزا عن الاستمرار . في حين
يعينني عمي أو (هانز) على النهوض . لكن الطريق

ـ على الأقل ـ كان منحدرا لأسفل مما سهل رحلتنا
وهكذا ـ في يوم الأربعاء الثامن من (يونيو) ـ وصلنا إلى نقطة التلاقي ، وقد صرعني الضعف والإعياء فارتميت على الأرض منهكا غارقا في النعاس ..

ـ يا صغيرى البائس !

قالها عمي وهو يحتضنني بذراعيه ... ولم أكن قد سمعته يتحدث بهذه الرقة والحنان . ولدهشتي لمحت الدموع تلتمع في عينيه ..

ـ أشرب ..

قالها وهو يقرب زجاجة الماء من فمي ... هل جن ؟ .. ماذا يعني ؟ ..

ـ أشرب !..

نعم ... هو ماء ! ... مجرد جرعة لكنها أعادت الحياة لي

ـ هي جرعة الماء الأخيرة ... هي [illegible] الأخيرة ... كنت [illegible] من [illegible] ... ولكم قاومت نفسي كي لا أشربها

سالت الدموع من عيني تأثرا ..

ـ آه يا عمى !.. شكرا ... شكرا ..

أبعد عمي عينيه عن عيني وقد بدا عليه الخجل مني .
فقلت :

ـ والآن يا عمي ... لقد حان الوقت لنعود أدراجنا !

ـ [illegible] الجرعة [illegible] الماء لم تردك شجاعة .

ـ أصغ إليّ يا عمى .. لم تزل العودة ممكنة .. أرجوك ..

ـ أعود ..؟

وبدا لي في هذه اللحظة كأنه يحدث نفسه في الواقع :

ـ أعود بعد كل هذا العناء ، وبعد أن صرنا قاب قوسين من النجاح ؟

ـ .. ومن الموت ..

ـ إذن عُد وحدك أنت و (هانز) .. اتركاني هنا لأنني لن أتراجع حتى لو كان عليّ أن أمضي وحيدا .. هيا .. اذهب .. ! .. اذهب

كان هذا مستحيلاً بالطبع .. وظللنا نتجادل أمام (هانز) الذى شرع يرمقنا في لا مبالاة ، وقد فهم من حركاتنا بالطبع أن هناك خلافا ما بيننا ، وأن كل واحد منا يحاول إقناع الآخر باتخاذ طريق مختلف . لكن الأمر لم يكن يعنيه كثيرا .. هو على استعداد أن يعود إذا ما طلب منه عمى ذلك كتابة . وعلى استعداد أن يستمر إذا ما أراد عمى ذلك منه .. لكم وددت لو أنه استطاع أن يفهمني .. !

اتجهت نحوه وشرعت أجذبه من يده مشيرا إلى اتجاه العودة ليفهم ما أريد ... لكنه اكتفى بهزّ رأسه والإشارة نحو عمى قائلا :

ـ سيد !!.

ـ سيد ؟ . لكنه سيد مصيرك أنت .. يجب أن نعود وأن نأخذه معنا ..

قال عمى فى رزانة :

ـ إهدأ يا (أكسل) واصغ لما سأقول . إننا لم نجد ماء فى الممر الاول ، والماء هو مشكلتنا الوحيدة ، لذا سنحاول أن نجد حظا أفضل فى الممر الثانى .

هززت رأسى لأقول شيئا إلا أنه قاطعنى .

ـ أصغ للنهاية . بينما كنت راقدا فعلت ذلك الشىء الذى كان علىّ أن أفعله من قبل . مضيت أستكشف الممر . انى واثق أنه خلال ساعات سيقودنا إلى صخور يجرى الماء بينها . إنه الطريق الذى اتخذه (ساكنوسم) من قبل وهويحتاج إلى الماء مثلنا طبعًا . وحيث وجد هو الماء سنجده نحن . ، لقد كان رجال (كولومبوس) يطالبونه بالعودة . لكنه طلب منهم ثلاثة أيام فقط .. وقبل أن تنتهى هذه الأيام الثلاثة كانوا قد اكتشفوا (أمريكا) .. سأكون أنا (كولومبوس) هذا العالمَ لكنى لن أطالب بثلاثة أيام بل بيوم واحد .. يوم واحد بعده سنعود أدراجنا .. فهل هذا كثير ؟

بدا لى كلامه منطقيًا .. فهززت رأسى موافقًا :

ـ بارك الله فى رجاحة عقلك وصبرك ... إن الوقت ضيق لذلك دعنا نبدأ فى الحال ..

• • •

٥ ـ الرحلة تستمر ...

شرعنا نجوب الممر الجديد يتقدمنا (هانز) كالعادة ...، وما أن قطعنا مائة خطوة حتى رفع عمى مصباحه يتفقد الصخور . وهتف :

ـ هذا هو الممر الصحيح .. لا أخطاء هذه المرة .. فإلى الأمام !

وفى الثامنة مساءً لم نكن قد وجدنا أى أثر للماء .. كان الإجهاد والظمأ يقتلاننى لكنى تحاملت على نفسى إلى أن .. إلى أن فقدت كل القدرة لى على الاستمرار وهويت على الأرض صارخًا :

ـ إننى أموت !.. إلىّ .. إلىّ !

عاد عمى وانحنى بجوارى . وسمعته يقول :

ـ هذا ينهى كل شىء ..

غبت عن الوعى وحين أفقت وجدتهما جالسين جوارى لايتحركان فهل كانا نائمين ؟.. كنت أعرف أنه ما من شىء يمكن عمله ولا شىء يعيننا .. هذا ينهى كل شىء .. حقًا . لم يعد حتى ترف العودة متاحًا ، لأن ستة أميال من قشرة الأرض تعزلنا عن العالم الخارجى .. حتى لاكاد أشعر بثقلها فوق روحى ..

وفي الظلام سمعت جلبة .. فتحت عيني ببطء لأرى
(هانز) ينسل من المكان حاملاً مصباحًا .. إلى أين هو
ذاهب ؟.. حاولت أن أنادى .. أن أصرخ .. لكن صوتي
خرج مختنقًا ..

ـ (هانز) قد غادرنا !.. (هانز) !..

لكن هذه الكلمات لم تخرج من حنجرتي .. أهو يفر ؟..
كلا .. لابد أنه يعتزم أمرًا ما ، لأنه يتوغل داخل الممر
بدلاً من الخروج منه ، وتلك علامة طيبة .. هدأت قليلاً
لكنني ظللت أتساءل عن سبب رحيله .. وتصارعت مئات
الأفكار السوداء في رأسي حتى ظننت أني جننت .. في
النهاية سمعت صوت خطواته .. ولمحته عائدًا حاملا
مصباحه ، ثم اتجه لعمي وهز كتفه برفق .. وقال :

ـ فاتن ..!

لم أكن أفهم الدانمركية ، لكن رنين الكلمة كان مألوفا
.. فصرخت :

ـ ماء !.. ماء !

صرخ عمي متسائلاً :

ـ ماء ؟.. هنا ..؟

ـ نيدات ...!

لقد فهمت !.. فجأة صرت أجيد الدانمركية .. الماء
تحت !

وهكذا استرددنا نشاطنا وشعرنا نجد السير عبر الممر ..
نصف ساعة كاملة ولا أثر للماء .. كاد أملي يموت لكن
عمي طمأنني أن الماء قريب .. وأن هناك نهرًا يجرى
خلف الجدار بمحاذاتنا لأنه يسمع صوت الماء بوضوح .

ومر نصف ساعة آخر والأمل يلمع أمام عيوننا ..
والصوت يتعالى .. ثم بدأ ينخفض !.. معنى هذا أن هذه
هي أقرب النقاط للنهر ومن الحكمة ألا نتحرك أكثر ..

في هذا المكان جلسنا نصغي لصوت الماء العذب
المعذب ..!

لم ييأس (هانز) بل شرع يتنقل هنا وهناك يلصق
أذنه بالجدار باحثا عن أعلى نقطة يسمع عندها خرير
النهر .. ثم أمسك بالفأس وشرع يهشم الصخر .. يا له
من ذكي !.. لم تكن لتخطر لي فكرة مماثلة أبدًا .. لكنها
خطرة .. خطرة .. فقد ينهار النفق كله فوقنا وقد يتدفق
تيار جارف من مياه النهر يجتاح كل شيء .. ولكن ..
ليكن ما يكون .. فلن نبالي بشيء .. نريد الماء
ولا يعنينا ما يحدث بعد ذلك ..

ساعة كاملة قضاها في الحفر وأنا وعمي نرمقه في
نفاد صبر عاجزين عن مساعدته ..

وفجأة انبثق تيار من الماء عبر الفتحة ..!

أطلق (هانز) صرخة ألم حين مسه الماء .. وكذا أنا

سحبه كمسه لتشد في حذر وأنا وعمي نرمقه في نفاد صبر عاجزين عن مساعدته ..

حين مددت يدى لأشرب .. لقد كان الماء يغلى ..!.

ـ اللعنة !.. إنه ساخن ..

ـ لاعليك .. سيبرد حالاً ..

وبعد دقائق أمكننا أن نشرب . يالروعة !.. لايمكنني أن أشرح لك أية نشوة شعرت بها إلا إذا كنت قد جربت الحياة بدون ماء بضعة أيام . كان الماء مجهول المصدر دافئا .. لكنه ماء !.. ولقد أعاد الحياة لنا حتى إننى ظللت أجرع منه دون حيطة . وإن سألت عمى :

ـ طعمه كالحديد إلى حد ما ..

ـ عظيم !.. هذا مفيد للصحة ..

ـ هل أنت واثق ؟

ـ طبعا . هذا الماء آت من على عمق ستة ميال تحت الأرض أى أنه لم يلوث . إن (هانز) يستحق أن نطلق اسمه على هذا النهر ..

كان الماء مستمرا فى التدفق مكونا مجرى صغير عبر صخور الكهف ..

وهكذا أسمينا هذا النهر (هانز باخ) بمعنى (تيار هانز) . إلا أن أقلنا اهتمام بهذا التشريف كان هو (هانز) نفسه الذى لم يتغير هدوءه المعهود . ثم إننى قلت لعمى وأنا أحاول سد النفق

ـ يجب أن نمنع هذا الماء من التدفق بعد أن نملأ زجاجاتنا

ـ و لمه ..؟

ـ لأن ..

وتوقفت لأننى لم أجد سببًا منطقيًا .. لهذا قال عمى :

ـ لندعه يتبعنا ويتدفق بشكل طبيعى ، وسيكون مرشدنا عبر الممر ، ويمدنا بالماء كلما احتجنا إليه ...

ـ هتفت :

ـ إنها لفكرة رائعة .. وطالما ظل هذا المجرى يرافقنا، فلا يوجد سبب يمنعنا من النجاح ..

ضحك البرفسير فى مرح :

ـ هاأنذا تقترب من الصواب يا بنى !

ـ أنا لا أقترب من الصواب ، بل وصلت إليه فعلاً .. هيا بنا !

ـ ليس قبل بضع ساعات من الراحة ..

لقد أنستنى الحماسة أن الليل قد جاء ... وهكذا أخلدنا للنوم أخيراً ..

• • •

حين صحوت فى الصباح دهشت للحظة من أننى لا أحس الظمأ ، ثم تذكرت أحداث الليلة الماضية فهدأت بالاً ، وشرعت أتناول طعام الإفطار بمعنويات عالية ..

كيف لا ينجح عمى إذا ما كان فى حوزته دليل مثل (هانز)

ورفيق رحلة مثلى ؟.. إن كل ما علينا هو أن نستمر فى النزول .. فأى شيء أهون من ذلك ؟!..

فى الممر واصلنا الرحلة .. لكنه كان يتعرج ذات اليمين وذات اليسار ، حتى أننا سرنا مسافة هائلة خلال يومين دون أن نهبط كثيرًا فى الواقع ..

وفى يوم الجمعة ـ العاشر من يوليو ـ وجدنا حفرة هائلة تبدو بلا قاع عند أقدامنا ، وقد أثار منظرها الرعب فى قلبى لكن عمى سُرّ كثيرًا لدى مرآها ...

ـ رائع ! . ستأخذنا هذه مسافة هائلة لأسفل . ولن تخيفنا الصخور البارزة من الجدران لأنها ستعمل كدرجات السلم ..

كان النزول سهلاً لأن الدرجات كانت منتظمة كأنما نحتت بيد إنسان ، وكنا نتوقف من حين لآخر لتناول الطعام والشراب من المجرى المائى الذى غدا الآن يتساقط من أعلى علينا ..

لقد هبطنا خمسة عشر ميلاً تحت سطح الأرض حتى هذه اللحظة .. واليوم هو الثانى عشر من يوليو .

وحين أخبرنى عمى أننا قطعنا ـ بحسب البوصلة ـ مائة وخمسين ميلاً باتجاه الجنوب الشرقى شعرت بدهشة ، وسألته :

ـ معنى هذا أننا لم نعد تحت (أيسلندا) ..؟

- هل تعتقد هذا ؟
- يمكننا التحقق من ذلك ...
وأخذت الخريطة منه وقمت ببضع عمليات حسابية أكدت لي وجهة نظري ..
- لقد عبرنا (كيب بورتلاند) أي إننا الآن تحت البحر ....!
- رائع !.. تخيل أية روعة !
أما أنا فلم أستطع تماماً فكرة أن أمشي تحت قاع البحر ..
على كل حال فالأمور تتساوى بالنسبة لنا سواء كنا تحت قاع الأطلنطي أو تحت هضاب (أيسلندا) فلا فرق بين صخور وصخور لا نرى سواها . لقد نسيت تماماً كل شيء عن النجوم والشمس والشوارع والبيوت .
وتستمر الرحلة ..
إلى أن جاء اليوم الذي أخبرني فيه عمي أننا الآن على عمق تسعة وأربعين ميلاً . فقلت في حيرة .
- لحظة يا عمي ... إن المسافة من سطح (أيسلندا) إلى مركز الأرض هو ٤٧٥٠ ميلا .. أليس كذلك ؟
- بلى
- لنقل إنها ٤٨٠٠ ميل .. ونحن قطعنا جزءاً من مئة في عشرين يوماً .. أي أن الرحلة ستستغرق ٢٠٠٠ يوم ... أي خمسة أعوام ونصف !!

صمت عمي لحظة ، ثم قال بغضب :
- من أدراك أن أرقامك صحيحة ؟.. ماذا يؤكد لك أن تستمر الرحلة على نفس المنوال ؟.. ثم إن هناك من سبقنا إلى هذا ، وحيث نجح هو سننجح نحن .
- أتمنى ذلك ولكن من حقي أن ..
- أن تخرس يا (أكسل) وتريحني من حماقتك !
وهكذا .. خرست ..
قال عمي وهو يشير للبارومتر ليبعد تفكيري عن خواطري السوداء :
- انظر إلى هذه القراءة .. ماذا ترى ؟
- أرى ضغطاً جوياً هائلاً ..؟
- وبرغم هذا لا نعاني منه ، لأن أجسادنا قد اعتادته .. هل تشعر به ؟
- مجرد ألم في أذني (*) لا أكثر ...
- هذا لا شيء .. وسيزول بمجرد أن تتنفس بسرعة لدقيقة ..
- نعم بالفعل ! . وهل لاحظت إلى أي حد غدا الصوت نقياً واضحاً ؟
- طبعاً ..

(*) راجع مقدمة الرواية .

ـ إذن فالهواء يزداد ثقلاً كلما نزلت أكثر .. حتى يغدو وزنه كالماء ؟..
ـ هذا محتم ..
ـ إذن كيف نستطيع الحركة في هواء كهذا ؟ .
ـ سنملأ جيوبنا حجارة عندئذ ..! . هذا كل شيء ..!
إن عمي ـ حقًا ـ يملك إجابة مفحمة على كل سؤال ..
لكن الحقيقة العلمية هي أن الهواء سيغدو صلبًا في لحظة ما . ومن الصعب أن أتخيل نفسي أتحرك في هواء صلب ! لكنني لن أعاود الحديث عن (ساكنوسم) اللعين الذي قام برحلته في القرن السادس عشر قبل اختراع (البارومتر) فكيف عرف أنه قد بلغ مركز الأرض حقا ؟!

• • •

ثم يحدث شيء ذو بال في الأسبوعين التاليين لمحادثتنا هذه
وفي اليوم السابع من أغسطس كنا على عمق تسعين ميلا تحت الأرض وكنت أسير في المقدمة وفجأة التفت خلفي فوجدت نفسي وحيدًا ..!
قلت لنفسي
ـ فلنكن لقد أسرعت أكثر من اللازم ، أو هما قد تعثرا . فلأعد لهما ولحسن حظي أن الطريق ليس شديد الانحدار

وبدأت أعود أدراجي .. ولكنني ـ وبعد ربع ساعة ـ لم أجد أحدًا .. ناديت فلم أسمع ردًا ..
وهنا بدأ الهلع يتملكني ...
فلتهدأ .. ستجدهما ثانية .. لا يوجد طريقان وأنت كنت في المقدمة وبالتالي لن يكون عليك سوى أن تعود .. لا يوجد احتمال ثان ... ومضيت عائدًا نصف ساعة آخر دون جدوى .. لا صوت ...
كلا ..!.. لا أصدق لحظة أنني قد فقدت طريقي وأنني وحيد .. لا يوجد سوى ممر واحد .. وحتمًا سأجدهما إلا إذا كانا شاردي الذهن وعادا للبحث عني . لكن حتى هذا يمكن التغلب عليه بأن أسرع قليلاً ..
ولكن .. هل حقًا كنت أسبقهما ؟.. بالطبع .. (هانز) كان خلفي ثم عمي ..
إن الشكوك تغزو روحي .. لكنني لم أكن لأضل طريقي طالما أن مجرى الماء يجري جواري ويقودني ..
قررت أن أغسل وجهي لأنتعش قليلاً وانحنيت لأغمس كفي على الماء لكن يدي لم تمس سوى الجرانيت ..!..
ليس هناك مجرى مياه عند قدمي .. !!
لا أستطيع هنا أن أصف ذعري ...
لقد دفنت حيًا ..!.. سأموت جوعًا وظمأ وبردًا .

لا بد أن الممرّ قد تفرّع فى نقطة ما لم أشعر بها .. وتتبعتُ أنا الاتجاه الخطأ على حين سار المجرى فى اتجاهه الصحيح حاملاً معه صديقىّ ..

ولكن كيف أعود ؟.. لا أثر يهدينى . لقد فكرت مرارًا ومرارًا بلا جدوى .. أنا ضائع ..!. ضائع ويجب أن أترك كل أمل ..

وبالطبع أستطيع أن أتخيل تعاسة عمى وهو يبحث عنى بلا طائل . عمى المسكين ! ، والآن ـ وقد ضعت تمامًا ـ شرعت أصلّى داعيا الله أن يرأف بحالى أنا الذى لم أصلِّ منذ أعوام ..

وتدريجيًا بدأ الذعر يفارق روحى .. والتعقّل يعود ...

إن معى من الطعام والشراب ما يكفى لثلاثة أيام .. ومن الحماقة أن أنتظر الموت فى مكانى .. فلأتحرك .. ولكن فى أى اتجاه ؟ إلى أعلى بالطبع .. هذا هو أملى فى أن أجد نقطة التفرع ..

وليكن شاغلى الأكبر أن أجد نهر (هانز باخ) مرة أخرى ..

• • •

ظللت نصف ساعة كاملاً أسير صعدًا النفق .. محاولا أن أستعيد شكل الصخور أو أى شىء .. ثم

فهمت أن النفق الذى أسير فيه لن يقودنى لأى مكان .. لأنه مسدود ..

هويت جوار الحائط مفترشًا الصخور ...

لا جدوى ..!.. إن ميتة شنيعة تنتظرنى لا محالة ..

إن المصائب لا تأتى فرادى .. وها هو ذا مصباحى يضعف ويتراقص ضوءُه من جراء سقطتى .. والآن ـ فى أية لحظة ـ سيولّى الضوء للأبد تاركًا إياى وحيدًا فى غبشة الظلام ...

ها هو ذا ..! لا ضوء ..! دوت صرختى الملتاعة فى الظلام .. الظلام البكر الأولىّ .. ظلام .. الظلام ...

شرعت أجرى .. أتحسّس الصخور .. أصطدم بها .. أتعثر .. أنهض .. ألعق الدم السائل على وجهى .. أين أذهب ؟.. وأين أنا ؟..

ساعات لا حصر لها مرت علىّ وأنا أتحرك كالذبابة فى كل مكان ، وفى النهاية خارت قواى وهويت ـ كجثة ـ جوار الحائط فاقدًا إحساسى بالعالم كله ..

• • •

بدأت أفيق مدركًا ـ فى هلع ـ أننى لم أمُت بعد . .

وهنا سمعت ضوضاء تصطدم بأذنى .. ثم تخفت وتبتعد ...

من أين تأتى؟.. حتمًا من مكان ما تحت الأرض .

من انهيار صخرى أو اصطدام غازات بعضها بالبعض ..

وهنا عادت الضوضاء .. كأنها كلمات .. كلمات لا أعرف لها معنى لكنها كلمات .. وليست مجرد أصوات عشوائية ..

اهتززت من فرط الانفعال

هل هو خيال ؟ .. لا .. إنه شخص ما يتكلم لا شك في ذلك

أكاد أسمع كلمة تتكرر .. كلمة كأنها تقول (فورلوراد) .. ما معناها ؟ ومن يتحدث ؟.. هل هو عمي أم (هانز) ؟.. وهل يسمعانني ما دمت أسمعهما ؟.. ناديت بأعلى صوتي:

ــ هنا !.. هنا !

واستطرت هنيهة منتظرًا دون جدوى .

ظللت أنقل جوار الحائط مصيخ السمع حتى وجدت نقطة يدوي الصوت كأوضح ما يكون .. (فورلوراد .. فورلوراد) . ثم سمعت اسمي .. هذا صوت عمي حتمًا .. لا بد أن (فورلوراد) كلمة دنماركية يرددها (هانز) .

والآن .. لا وقت لدي أضيعه . يجب أن أناديهما قبل أن يبتعدا .. لهذا صرخت بأعلى صوتي

ــ عمي ليدنبروك !!.

يبدو أن الهواء بطيء في نقل الصوت هاهنا .. إن الهواء الثقيل هو السبب .. إنه ينقل الصوت أعلى ، ولكن أبطأ مما على سطح الأرض ..

ــ (أكسل) !.. أهذا أنت ؟

. . .

ــ نعم !

....

ــ أين أنت ؟

....

ــ ضائع في ظلام مدلهم !

....

ــ (أكسل) !.. عزيزي .. كن شجاعًا ... لاتتكلم !.. لقد بحثنا عنك في كل مكان ، وأطلقنا رصاص بندقيتينا علك تسمع .. لكننا لا نستطيع أن نتقابل .. ولا نعرف مكانك ... لهذا .. سنعتمد على الصوت .

....

ــ عمي !.. هل معك ساعة الإيقاف ؟

....

ــ نعم ...

....

ــ خذها ..!.. ناد اسمي واضغط زر التشغيل .. وبمجرد أن أسمع أنا صوتك سأنادي اسمك .. وهكذا تضغط الزر ثانية .. وسيكون الوقت الذي يستغرقه صوتك وصوتي في التنقل مقسومًا على اثنين ، هو الوقت الذي يستغرقه الصوت لقطع المسافة بيننا ...

....

مستقط ؟

....

ـ نعم ..

....

ووضعت أذنى لصق الحائط .. وما إن سمعت كلمة (أكسل) حتى صرخت (ليدنبروك) .. وانتظرت رد عمى .

ــ أربعون ثانية ! أى أن المسافة بيننا يقطعها الصوت فى عشرين ثانية .. وسرعة الصوت ١٠٢٠ قدمًا فى الثانية ، أى أن المسافة بيننا تقترب من أربعة أميال .. (*)

....

كنت أبكى من خيبة الأمل إلا أن عمى صاح ..

ـ ليست مسافة مستحيلة يا (أكسل) ..!

....

ـ لكن هل أصعد أم أهبط ؟

. . . .

ـ اهبط لأننا قد وصلنا إلى مكان واسع تجرى عبره

(*) قد وقع المؤلف فى خطأ حسابى صغير لاحظه الكاتب الروسى (ياكوف بريسمان) ، [illegible] كثافة الهواء تزيد سرعة الصوت ، وبالتالى فإن المسافة بين البروفسير و (أكسل) أكبر من أربعة أميال بكثير وحسابها يتوقف على معرفة كثافة الهواء على هذا العمق ... (والمفروض إنها كبيرة) .

عدة ممرات ولابد أن الممر الذى أنت فيه يقود إلى هنا .. ازحف . امش .. عبر الممر الزلق .. ولابد أن تجدنا ننتظرك فى النهاية .

....

ـ وداعًا عمى .. وأرجو أن نلتقى ثانية لأننى لن أسمعكما متى غادرت هذا المكان ...

....

حمدت الله على أن قاد خطاى إلى المكان الوحيد الذى يمكننى فيه أن أسمع عمى عن طريق ظاهرة صوتية معروفة تجعل الصوت العادى ينتقل بشكل أفضل.. لقد رأيت ظاهرة مماثلة فى كاتدرائية (سان بول) فى لندن .. وفى كهوف (صقلية) وممراتها قرب (سيراكوز) ..

المهم الآن أن أبدأ الزحف .. إن الممر شديد الانحدار حتى أننى كنت أتدحرج على صخوره .. أتدحرج .. أتدحرج ..

وفقدت وعيى حين اصطدم رأسى بصخرة حادة .. ولم أدر بشىء بعدها ..

• • •

– كان شديد الانحدار حتى أنى كنت أتدحرج على صخوره

أتدحرج .. أتدحرج

٦ – بحر الأعماق ..

حين أفقت وجدت نفسى فى مكان مظلم ، وعمى يحدق فىّ !..

فتحت عينى ، فصرخ فى لهفة :

– إنه حىّ !.. حىّ ..!.. حمدًا لله على نجاتك !

ثم جاء (هانز) .. وبدا على وجهه الساكن تعبير قوى من الرضا .. وقال :

– جود داج .. (نهارك سعيد) ..

– ونهارك أنت أيضًا سعيد يا (هانز) !.. والآن ياعماه .. أين نحن ؟

– غدًا يا (أكسل) .. غدًا .. فاليوم أنت مريض ورأسك جريح إلا أننى سأعتنى به .. فقط نم . وغدًا ستعرف كل ما ينبغى أن تعرفه .

– على الأقل قل لى فى أى يوم نحن وأية ساعة ؟

– إنها الحادية عشر مساء يوم الأحد .. التاسع من أغسطس .. والآن نم .. فلن أجيب عن أسئلتك حتى الغد ..

• • •

عندما استيقظت من نومي كنت في كهف متسع رائع الجمال . والأرض مغطاة برمل أبيض نظيف .. وثمة ضوء ما قادم من فتحة ضيقة . وكان هناك صوت غامض كهدير موج البحر آتٍ من بعيد .

هل أنا حقًا متيقظ ؟ أم ما زلت أحلم ؟. لا يمكن لحلم أن يبدو واقعيًا إلى هذا الحد ..

هل أنا على سطح الأرض ؟

هل تخلى عمي – أخيرًا – عن استكشاف الأرض ..؟

كنت غارقًا في هذه الأسئلة حين دخل عمي وحياني .. وأبدى سروره من أنني استعدت قواي .. ثم قدم لي طعام الإفطار ..

– عمي .. هل أنا حقًا بخير ؟

– بالطبع .. لا شيء بك ..

– ألسنا على سطح الأرض ؟

– نعم ..

– إذن أنا قد جننت حتمًا إذ أرى ضوء النهار وأسمع الرياح ..

– أهذا هو ما يقلقك ؟

– طبعًا ... اشرح لي .

– لن أشرح شيئًا لأني لا أملك تفسيرًا .. سترى بنفسك أن علماء (الجيولوجيا) لا يعرفون أي شيء .. كل معلوماتهم غير دقيقة ..

إذن .. لنذهب في الحال ...

– كلا يا (أكسل) .. إن الهواء الطلق سيؤذيك حتمًا ..

– هواء طلق ؟!

– بالطبع .. ويجب أن نبحر كذلك !..

– نبحر ؟!

وكان انفعالي قد وصل حدًا لا يوصف مما جعل عمي يطلق سراحي ، وقد أدرك أن منعي سيؤذيني أكثر من تركي أستريح ..

في البدء كان الضوء ساطعًا إلى حد أنني لم أر شيئًا .. وحين فتحت عيني . لم أستطع أن أفهم شيئًا على الإطلاق ..

– هذا بحر !

– قال عمي في هدوء :

– نعم .. بحر (ليدنبروك) .. هكذا أسميته على اسمي ..

كان أمامي بحر حقيقي له شاطئ حقيقي من الرمال البيضاء . وريح هادئة تهب ... يترقرق كل هذا في ضوء أبيض هادئ بارد ليس مصدره القمر ولا مصدره الشمس .. فمن أين يأتي ؟

وكانت هناك سماء تملؤها السحب فوق كل هذا .. لكنني كنت أدرك أنها ليست سماء حقيقية .. لابد أنه

فوق هذه السحب يوجد سقف هائل من الجرانيت على ارتفاع لايقل عن تسعة أميال ..

وكان عمّى ـ الذى اعتاد هذا المشهد ـ يقف ساكنًا جوارى .. على حين انحدر مجرى الماء (هانز باخ) رفيق رحلتنا ليصب فى البحر ، وكأنه قد اعتاد ذلك من بدء الخليقة .

ـ يحزّ فى نفسى أن نفارقه الآن !..

ـ وماذا فى ذلك ؟. إن مجارى المياه تتشابه كلها ..

قالها عمّى فى نكران جميل واضح .

وهنا لمحت ـ على بعد خمسمائة خطوة ـ غابة !.. من الأشجار الشامخة . ولكنها شديدة الغرابة .. أشجار بلا أوراق ولا تداعبها الريح .. دنوت منها لأعرف كنهها ، فسمعت عمّى يقول

ـ إنه (عش الغراب) ..!

على أننا على البعد لمحنا أشجارًا أخرى من تلك التى عرفتها الأرض منذ ملايين السنين و تجهلها الآن .. بل ولمحنا عظامًا لحيوانات مريعة كالتى عرفتها منذ خمسين مليون سنة .

إن هذا الكهف متحف حقيقى ..!

وجلست على صخرة أرمق منها هذا الساحل الممتد أمام عينى أكاد أتوقع أن أرى سفنًا أو زورقًا .. لكننا ـ بالطبع ـ كنا الشىء الوحيد الحىّ فى هذا العالم السفلى ..

ما هو هذا البحر ؟.. إلى أين يمتد ؟.. هل سنرى الجانب الآخر منه ؟

فى الصباح نزلت لأسبح فى هذا البحر (المتوسط) وهو ـ بالمناسبة ـ اسم مناسب تمامًا له لأن (متوسط) تعنى أنه يقع فى وسط الأرض .. وعدت لأتناول إفطارًا شهيًا ، حين قال عمّى :

ـ هذا هو وقت المدّ ..

ـ المدّ ؟..

ـ طبعًا .. إن هذا البحر لا يختلف عن باقى البحار .. وهو مضطر لأن يستجيب لجذب الشمس والقمر .. إنها قوانين (الفيزياء) الصارمة ..

ـ وما هو عمقنا الآن يا عمّى ؟

ـ مائة ميل .. وقد ابتعدنا ألفًا وخمسين ميلاً عن (أيسلندا) ..

ـ إذن نحن الآن تحت (سكوتلندا) ؟

ـ حتمًا .. ومن الضرورى أن نعبر هذه البحيرة باحثين عن ممر آخر نستكمل به رحلتنا ..

ـ وكيف نعبرها ؟... هل توجد سفينة ما تنتظرنا ؟

ـ لا سفن يا بنى .. بل طوف قوى مريح ..

ـ طوف ؟.. ولكن من أين ؟..

ـ إن (هانز) يصنعه الآن ..

— (هانز) ؟.. وكيف استطاع قطع الأشجار ؟

— هو لم يحتج لذلك ... اتبعنى لترى ...

وتقدمنى عمّى إلى مكان على الشاطئ خلف بعض الصخور لأجد (هانز) يعمل فى بناء الطوف . الطوف الذى كان — لشدة دهشتى — على وشك الانتهاء الآن .. ومصنوعًا من خشب عجيب الشكل ..

— عمّى .. أى نوع من الخشب هذا ؟

— خشب حفرى طبعًا .. خشب تحجّر بفعل مياه البحر ..

— إذن هو ثقيل كالحجارة ولن يطفو

دون كلمة أمسك عمّى واحدة من هذه الأخشاب وألقى بها فى الماء .. فهبطت .. ثم عادت تطفو فى رزانة ..

— هل اقتنعت ؟

— لا أصدق لكنى اقتنعت ..

وانتهى الطوف فى مساء اليوم التالى بفضل مهارة دليلنا .. وبعد نصف ساعة كان يسبح فوق مياه (بحر ليدنبروك) ..

• • •

شرعنا نمخر المياه و (هانز) يتحكم فى اتجاهنا بوساطة دفة صغيرة اصطنعها لنا .. أما شراعنا فكان سجادة صغيرة علقناها على سارية صغيرة فى منتصف الطوف .

كان الطوف متينًا .. ولقد وضعنا عليه طعامنا وأجهزتنا ومتاعنا والكثير من الماء دون قلق ..

أما الريح فكانت قوية بشكل غير عادى بسبب ثقل وزن الهواء ، مما جعلنا نتحرك بسرعة تسعين ميلاً فى اليوم .. وتوقع عمّى أننا سنصل سريعًا إلى الجانب الآخر .. وطلب منى أن أدون يوميات تفصيلية عن اتجاه الريح وسرعتنا والمسافة التى نقطعها ..

الجمعة ١٤ أغسطس :

الريح شمالية غربية . لقد اجتزنا مسافة تسعين ميلاً بعيدًا عن الساحل .. لم تتغير شدة الضوء .. السحب فى السماء لها لون الفضة .. درجة الحرارة اثنان وثلاثون درجة ..

جرب (هانز) أن يربط قطعة من اللحم فى سنارة ورماها بحبل إلى الماء .. وطفق ينتظر ..

وهنا — ولدهشتنا — شرع شىء ما يجذب السنارة فجذبها (هانز) سريعًا ، وكانت هناك سمكة تتدلى منها .. سمكة لها رأس مسطح مستدير .. وليس لها أسنان ولا عينان ولا ذيل .. أما جسدها فمغطى برقائق عظمية سميكة ..

— ما أغربها سمكة !

قال عمّى ، وهو يتأملها :

— بالفعل . إنها سمكة منقرضة من ملايين السنين . سمكة من العصر (الديفونى) !. وإنها لمعجزة أن نجدها حية ترزق ..

شرع (هانز) يجرب حظه مرارًا . وفى كل مرة يجد أسماكا أخرى كلها — أو كنا نظن أنها — منقرضة .. لكنها صالحة كى تدخل قائمة طعامنا بكل ترحاب .

إن هذا السمك لدليل يثير الرعب ..

ألا يعنى ذلك أن هناك احتمالاً أن نلتقى بين لحظة وأخرى واحدة من تلك الزواحف المريعة التى عرفتها الأرض من ملايين السنين ؟!

بدأ هذا الهاجس ينغص علىّ حياتى ويملأ لحظات شرودى بالكوابيس والوحوش المفزعة .

السبت ١٥ أغسطس :.

لم يتغير شىء .. وما من أرض على مرمى البصر .

عمّى يكاد يجن غيظًا .. وهو ما لم أفهمه . إن الرحلة تمضى بسرعة وسلام ، فماذا يضايقه ؟ .

— هل هناك شىء ياعمّى ؟

— بل لا شىء . وهذا هو ما يضايقنى .

— لكننا نتحرك بسرعة .

— نعم بسرعة . لكن هذا البحر لن ينتهى . ونحن لا نهبط .. أى أن كل هذا وقت ضائع ..

— ولكننا نقتفى أثر (ساكنوسم) ... و ...

صرخ فى عصبية :

— هذه هى المشكلة ! . هل حقًا نحن فى مسار (ساكنوسم) ؟ . هل قبل هذا البحر ؟.. هل عبره . ؟.. لا دليل على ذلك ..

قلت فى هدوء :

— على كل حال لا داعى للقلق .. إن كل ما نراه جديد .. والرحلة تسير على ما يرام تمامًا .

— لكننا لا نهبط !!

وفى هذه اللحظة ذكرنا (هانز) أن هذا هو مساء السبت وأنه يجب أن يتقاضى أجر الأسبوع !

* * *

الأحد ١٦ أغسطس :

كعادته حاول عمّى أن يسبر عمق البحر . أمسك بمعول ثقيل وربطه بالحبل وبدأ يدلى به فى الماء .. انتهى الحبل ولم يظهر أن هناك عمق لهذا البحر . !

إلا أن شيئا أثار قلقنا حين رفعنا الحبل . إذ أشار (هانز) إلى علامات معينة على قبضة المعول الخشبية .. وهتف :

— تاندر !..

لم تفهم .. لكن عمّى صاح :

ــ أسنان !

الاثنين ١٧ أغسطس :

لم تزل فكرة الأسنان لا تبرح خيالى .. ظللت أرمق البحر فى قلق ، ثم بدأت أتفحص الأسلحة لأطمئن على أنها بحالة جيدة .. لاحظ عمّى ما أفعله فابتسم كأنه يقول : إننا نشترك فى نفس الفكرة ..

يجب أن نكون حذرين ...

الثلاثاء ١٨ أغسطس :

جاء الليل أو بمعنى أدق شعرنا بحاجتنا للنوم ..

استيقظت على صدمة مروعة . لقد ارتفع الطوف بقوة ما .. ثم هوى فوق الأمواج مرة أخرى على بعد مائة قدم ..

أشار (هانز) إلى جسم عملاق يتحرك علوًا وهبوطًا على مسافة منا .. فصرخت :

ــ إنه خنزير بحر عملاق !

قال عمّى وهو ينظر فى نفس الاتجاه :

ــ حقًا .. وهناك سحلية مائية هائلة الحجم كذلك ...

ــ وتمساح ضخم .. انظر إلى أسنانه !..

ــ هناك حوت كذلك !.. إن الماء ينبثق من نافورته ..

أدار (هانز) الدفة ليهرب من حديقة الحيوانات العملاقة هذه . لكنه فوجئ بحيوانات أخرى آتية من الجهة اليسرى .. سلحفاة مائية . وأفعى طولها ثلاثون قدمًا ..

لقد غدا الهرب مستحيلاً .. إن هذه المخلوقات تتحرك جيئة وذهابًا حولنا .. ولا جدوى من إطلاق الرصاص لأن جلد هذه الأشياء لن يكون أقل سمكًا من الدروع ..

وهنا هزّ (هانز) رأسه .. وهتف :

ــ تفا ...!

ــ يقول إنهما حيوانان فقط !

ــ إنه يهذى يا عمّى ...

ــ لا .. هو مصيب .. حيوانان أحدهما له فم خنزير بحر ورأس سحلية وأسنان تمساح وهو حيوان شنيع اسمه (إكثيوسوروس) ..

ــ والآخر ؟

ــ حيوان ذو جسم سلحفاة وعنق أفعى اسمه (بليسيوروس) .. وهما على وشك الدخول فى صراع .. نعم .. انظر !..

لقد التحم الحيوانان فى صراع شرس لا يوصف .. وأخذت الأمواج تتحرك كالجبال نحونا ، لكننا لم نكن نملك سوى أن نتجمد فى أماكننا .. ساعتين كاملتين من

القتال المريع حتى تحرك الحيوانان غاطسين تحت الماء غائبين عن عيوننا ..

وفجأة انشق (البليسيوروس) من تحت الماء .

الدم ينز من جروحه ورأسه تتمايل هنا وهناك .. ثم هوى فوق سطح الماء فقد الحياة . أما الآخر فاختفى .. هل مات ؟ هل سيعود ؟ . هل ينتظرنا تحت الأمواج فى هذه اللحظة ؟

لم نجد إجابة لهذه الأسئلة المفزعة .

• • •

الأربعاء ١٩ أغسطس :

وقف (هانز) على قمة الصارية يرمق الأفق . وقد بدا أن هناك ما يثير اهتمامه . فقال عمّى :

ـ إنه يرى شيئا ما ..

ـ أظن هذا ..

ثم إن (هانز) نزل إلينا وأشار نحو الجنوب .

ـ دير نير ...

ـ أسفل هناك ؟.. فلنر ما يريد .

ونظر عمّى فى حيرة تجاه الجنوب . ثم هتف :

ـ ثمة تيار مائى قوى . نافورة تندلع من الماء إلى أعلى ..

ـ أتراه وحشًا آخر ؟

ـ ربّما ..

ـ إذن دعنا نفرّ ..

ـ كلا .. ليس قبل أن نرى ما هنالك ..

وهكذا ـ مرغمًا بالطبع ـ شرعنا نقترب من هذه النافورة . أى نوع من الحيوانات يمكنه ذلك ؟ .

وفى الثامنة مساء كنا قد اقتربنا جدًا . كان شيئا ضخمًا كالجبل وأمواج البحر ترتطم به والماء ينبثق منه إلى ارتفاع خمسمائة قدم ، ثم يتساقط على شكل مطر فوق رءوسنا ..

ـ ما هذا يا عمّى ؟

لم يرد عمّى . فى حين انتابنى الهلع . أى شىء هذا ؟ وهنا وقف (هانز) مشيرًا إلى الخطر . وصاح وهو يبتسم فى سخرية :

ـ هو لم !

صرخ عمّى :

ـ جزيرة !.. مجرد جزيرة ! وهذا الماء نافورة طبيعية تنبثق منها . وهى تبدو كحوت عملاق نائم .

وشرعنا ندور حول الجزيرة نتأملها . وأسماها عمّى باسمى .. ثم أمر (هانز) بمواصلة الرحيل

• • •

الجمعة ٢١ أغسطس :

كنا الآن تحت انجلترا وعلى بعد ١٨٠٠ ميل من

(أيسلندا) بدأت الريح تزداد قسوة وبدا أن الجو
يوشك على التبدل وبدأنا نشعر به مشحونا بالكهرباء ..
والسحب قد اكتست لونا بنيًا فيه شيء من الاخضرار ..
والظلام يتزايد ..

إنه نذير عاصفة ...

لم يبد على عمى الاهتمام لأن مراحه لم يكن ليتحمل
مزيدًا من الاكفهرار وقد دمرت أعصابه تمامًا فكرة
أن هذا البحر مستمر إلى الأبد ..

السحب تضغط على صفحة البحر ، كأنما تريد
تحطيمه .

ـ دعونا ننزل الشراع والصارية ..

ـ كلا ..!

صرخ عمى فى جنون :

ـ أريد رؤية صخور الشطئ حتى لو تهشم هذا
الزورق إلى قطع صغيرة !

• • •

٧ـ بعض المصائب !..

لم يكد عمى يكمل عبارته حتى انهمر المطر مدرارا ..
وازداد الظلام .. وفجأة يرتفع الطوف لأعلى . وتدفع
الريح المجنونة شراعنا للأمام أسرع وأسرع . فأشير
لـ (هانز) بإشارات تقول له أن ينزله لأسفل . قبل أن
يتحطم ..

ـ لا ..!

يصرخ عمى . فيرد (هانز) وهو يهز رأسه موافقا
عمى :

ـ نادى !

المطر ينهال على رءوسنا كالشلال . والعاصفة فى
ذروة هياجها .. والرعد يزأر طيلة الوقت دون توقف
الحرارة تزداد وتزداد والجو مشحون بالكهرباء ..
والعاصفة لا تهدأ ...

كانت ليلة رهيبة ..

الاثنين ٢٤ أغسطس :

العاصفة لم تهدأ لحظة رباه .. لكم نحتاج للراحة !..
لقد تركنا جزيرة (أكسل) منذ زمن طويل . ربما
يفصلنا عنها الآن ستمائة ميل ..

ـ ها هو ذا عمي يدنو مني ويقول شيئا ما .. لكننا منذ ثلاثة أيام لانسمع حرفا مما نقول لبعضنا .. حتى الصراخ في الأذن لا يجدي .. إلا أنني أعتقد أنه يقول :

ـ لقد ضعنا !.. انتهى أمرنا !..

أشرت إلى الشراع بما معناه :

ـ دعنا ننزله الآن ..

فهز رأسه بمعنى : فليكن ، وهنا تهشمت صارية الشراع وطار هذا الأخير في الهواء .. وظهرت كرة نارية ملتهبة على حافة الطوف .. كرة لونها أبيض مزرق تتحرك ببطء شديد هنا وهناك .

وتجمد الدم في عروقنا لأنها لو لمست صندوق البارود ستكون النهاية .. إلا أنها تحركت ببطء نحو قدمي .. حاولت أن أسحب قدمي بعيدًا عنها فلم أستطع .

وشممت رائحة غريبة في الهواء ..

لماذا لا أستطيع تحريك قدمي وكأنها مقيدة إلى خشب الطوف ؟

فهمت ! .. لقد مغنطت هذه الكرة الكهربائية كل ما هو معدني على الطوف .. أسلحتنا .. أدواتنا .. حذائي الذي تلصق بقطعة حديد على خشب الطوف ..

وهنا ـ وقبل أن تلمس الكرة قدمي ـ انفجرت .

وغرقت في ضوء أبيض مفزع ..

ثم ساد الظلام ...

• • •

الثلاثاء ٢٥ أغسطس :

لا بد أنني فقدت حواسي .. هل حقًا ما زلنا في الماء ؟

نعم .. ما زلنا نسير للأمام بسرعة مرعبة . لا بد أننا الآن تحت .. لا بل لا بد أننا فارقنا (أوربا) من زمن ..

ثمة صخب .. كأنه زئير الأمواج إذ تصطدم بالصخور .. و ...

لم أدر ما حدث ..

فقط شعرت أنني أقذف إلى شاطئ فوق الصخور الحادة . ولولا ذراع (هانز) القوية لتهشمت

على الشاطئ وجدت نفسي جوار عمي على حين عاد (هانز) إلى الطوف المهشم محاولا إنقاذ بعض متاعنا

واحتجبت لي ساعة كاملة لأستعيد قدرتي على الكلام .

وكان (هانز) قد أعد لنا بعض الطعام إلا أنني لم أستطع ابتلاع لقمة واحدة . لقد حطمتني رحلة الثلاثة أيام دون توقف ..

لقد انتهت العاصفة أخيرًا ..

وقف عمي يتأمل البحر الساكن .. وقال :

ـ آمل أنك قد نمت جيدًا يا بني ..!

فقد سقطت بي قدمي ، وانزلقت فوق الصخور الحادة ، ولولا ذراع (هانز) القوية لتهشمت .

إنه يتحدث كأننا ما زلنا في دارنا في شارع (كونيش) . آه ..!.. لو أن العاصفة قد سارت بنا شرقاً فربما كنا الآن تحت (ألمانيا) . تحت (همبورج) الحبيبة . بل لربما تحت الشارع الذي تعيش فيه أجمل وأرق فتاة في الكون ! وعندئذ لا يكون الفاصل بيني وبينها سوى ١٢٠ ميلاً .. ١٢٠ ميلاً من قشرة الأرض الصلبة !

قلت لعمّي :

ـ تبدو سعيداً حقًا اليوم ...

ـ بالطبع . لقد وصلنا ؟

ـ لنهاية الرحلة ؟

ـ كلا . بل لنهاية هذا البحر الشنيع . سنعود للهبوط ..!

تنحنحت ، ثم سألته بكياسة :

ـ هل لي في سؤال يا عمّاه ؟

ـ أي شيء ..

ـ كيف سنعود ؟!

ـ نعود ؟ نعود قبل أن نصل لنهاية الرحلة ؟ كيف تفكر في ذلك ؟ وعلى كل حال سنجد وقتها طريقاً آخر .. او نعود من نفس الطريق ، وهو ما لا أراه أمراً مشوقاً !

ـ عندئذ يجب أن نصلح الطوف ؟

— طبعًا ..

— والمؤن .. هل ستكفينا ...؟

— [illegible]) [illegible] أشهر

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

في (أوستراليا) ..

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

وجلسنا نلتهم طعام الإفطار .

[illegible]

فقال :

— [illegible]

[illegible]

— عند تلك الجزيرة ...

— [illegible]) لانتحل من تسميتها ؟

— حسبي .. عند جزيرة (أكسل) .. كنا قد عبرنا ٨١٠ ميلاً من البحر وكنا على بعد ١٨٠٠ ميل من (أيسلندا) .

وفي العاصفة تحركت بسرعة ٢٤٠ ميلاً في اليوم لمدة ثلاثة أيام .. لم تقل سرعتنا عن ذلك .

— إذن نحن نبعد ٢٧٠٠ ميل عن (أيسلندا) .. أي أننا تحت البحر الأبيض المتوسط ..

— تقول ذلك يجب أن نكون متأكدين من أن اتجاهنا لم يتغير

— [illegible] البوصلة

نهض عمي بنشاط إلى حيث رتب (هانز) المعدات .

واتجه إلى البوصلة .. ونظر إلى الإبرة للحظة .. ثم فرك عينيه و[illegible] .. وفي ذهول رفع رأسه نحوي

كانت الإبرة تشير [illegible] الشاطئ ونحو البحر .. أي أنها لا تشير إلى ما حسبناه الجنوب .. هززتها فحصتها .. لكنها كانت على ما يرام ، وهذا يعني شيئًا واحدًا .. أن الريح قد أعادتنا إلى الشاطئ الذي بدأنا الرحلة منه !! لقد عدنا إلى حيث بدأنا .

لم أر في حياتي رجلاً أكثر إحباطًا من عمي في البداية ولا أكثر منه جنونًا بعدها .. سنعيد كل ما فعلناه بعد كل هذه الرحلة المرعبة ..!

- أى حظ سيئ !.. الماء والنار والريح ضدى ..! يفعلون كل ما فى وسعهم كى يمنعوننى ..! ولكنهم لن يمنعونى أبدًا .. سنرى من ينتصر . الإنسان أم قوى الطبيعة !

قلت فى كياسة :

- اسمعنى يا عماه .. ثمة أشياء لا يستطيع الإنسان أن يفعلها .. ثمة أشياء مستحيلة وأشياء غير ممكنة ، لكن من الحمق أن يجاهد الإنسان هذه الأشياء المستحيلة .. لسنا فى موقف يسمح لنا بعبور البحر ثانية بطوف مهشم وشراع هو سجادة ودون دفة .. عندئذ تستطيع أية عاصفة أن تصنع بنا ما تريد .

وبالطبع لم يصغ عمى لحرف مما قلت .. وصرخ :

- إلى الطوف !

شرعت أقاوم فى جنون هذه الإرادة الصخرية دون جدوى .. وكان (هانز) - بفطرة لا تخيب - قد عاد لإصلاح الطوف .. ووضع معداتنا فوقه وأعدّ كل شىء لبداية جديدة ..

ماذا أستطيع أن أفعل ؟ .. إن (هانز) يبدو وكأنه لا إرادة له إلا إرادة سيده .. لا أستطيع سوى الاستمرار ..

قال عمى إنه يرغب فى استكشاف هذا الساحل قبل الرحيل .. لنعد عند لحيث بدأنا لكن - بالطبع - ليس

لنفس البقعة .. ومن حقه حتمًا أن يرى هذا المكان ..

- فلنذهب إذن ...

سرنا نحو نصف ساعة قبل أن نصل لبعض المرتفعات .. نرمق كل شىء فى اهتمام عظيم .. ، وهنا وجدنا عظامًا كثيرة على الأرض كأنها تحكى قصة الحياة كلها .. كأنه متحف كبير للحيوانات التى دبت على هذه الأرض يومًا ثم انقرضت ...

أما الشىء الغريب الذى لاحظته فى سيرنا فهو أننا لا نتحرك ظلالا على الأرض ! .. كان الضوء الساطع الذى نراه لا يأتى من موضع بعينه .. بل من كل الاتجاهات ..

وبعد أن سرنا نحو ميل وجدنا أنفسنا على حافة غابة ..

لم تكن من عش الغرب تلك الغابة .. بل من أشجار لا أعرفها .. ولم يكن لها لون .. وأوراقها تفتقر إلى الأخضر ... أما أزهارها فكانت رمادية ...

وفجأة ... تجمدنا فى مكاننا ...

خيل لنا أننا رأينا .. بل هو كذلك ... رأينا شكلاً ضخمًا يجول تحت الأشجار .. كان فيلاً هائل الحجم يكسوه شعر طويل .. (ماموث) ! .. فيل عصر الجليد ..!.

بل كان هناك العديد منها .. مايقرب من العشرين فيلاً

[illegible]

همس عمّي :

– تعالوا نلق نظرة مدققة عليها ..

[illegible]

العهد أننا فرنا كالمجانين قاصدين بحر (ليدنبروك) .

• • •

تساءل عمّي في حيرة وهو يعيد تأمل المكان :

– ما زلت أتساءل يا (أكسل) .. هل حقًا كنا هنا ؟

– لست واثقًا يا عمّاه .. أحيانًا أظن أن هذه الأماكن مألوفة ، وأحيانًا أظن أنني لم أرها من قبل .

– لكننا لا بد واجدون آثارًا تركها (هانز) في أثناء صنعه الطوف ..

– ها هو ذا .

وهرعت إلى شيء ملقى على الرمال والتقطته

– انظر !.. سكين ..

تأمل عمّي السكين ثم سألني :

– (أكسل) يا بني .. هل هذه السكين تخصك ؟

– لا .. حسبتك أنت ..

– بالطبع لا .

– إذن ربما هي سكين (هانز) .. لا بد أنه فقدها وهو يصنع الطوف .

– لا .. حتى (هانز) لم تكن عنده سكين مماثلة

ثم أن عمّي هز رأسه مفكرًا :

– إن هذه السكين لا تخص أحدنا .. ربما هي تعود إلى ثلاثمائة عام .. ربما هي تخص شخصًا جاء هنا قبلنا

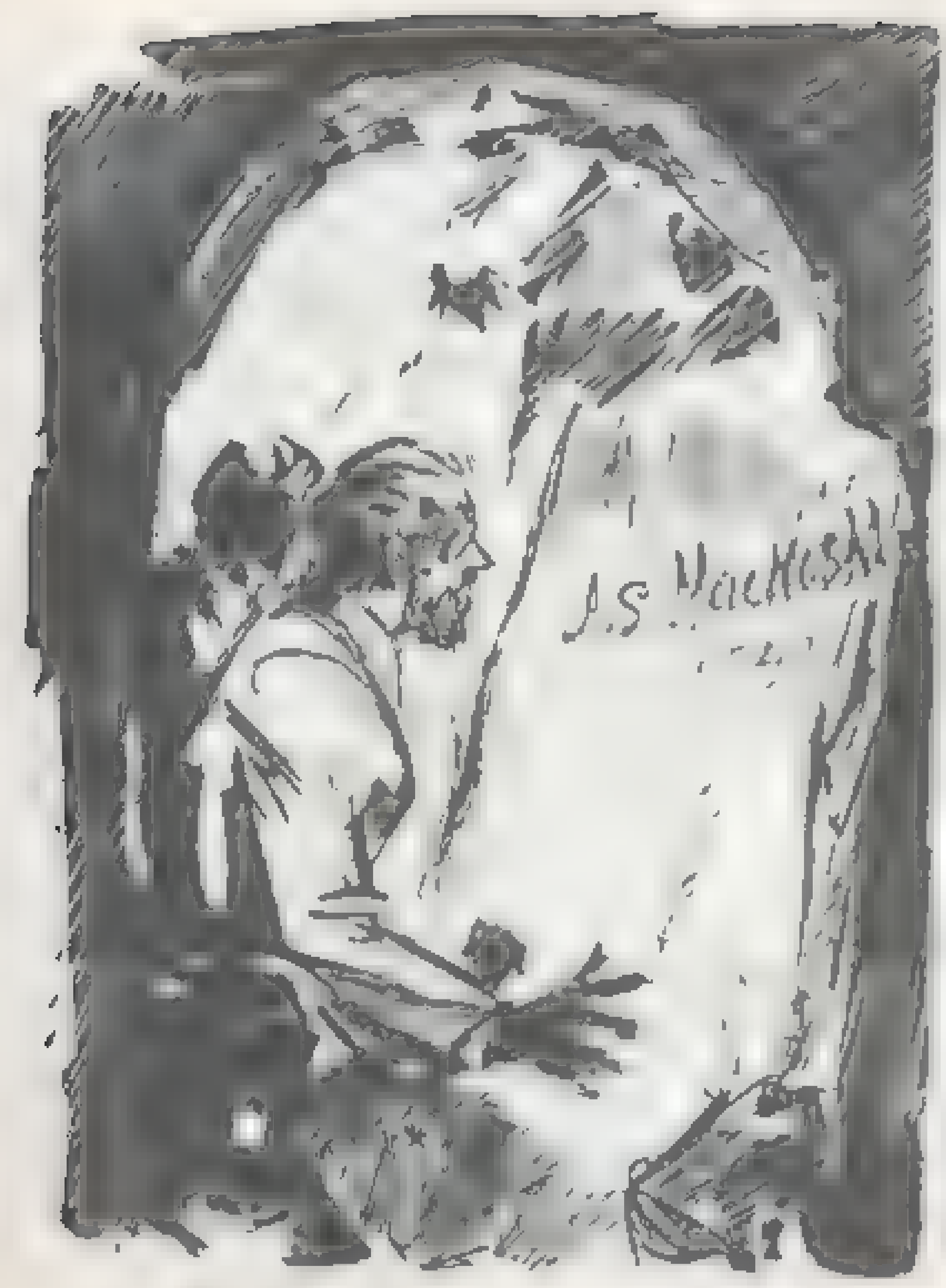

وشدة وبين حائطين من الصخور رأينا فتحة نفق مظلم كبير

وعلى الجرانيت رأينا حروفاً محفورة ..

وأراد أن يحفر اسمه على صخرة بهذه السكين ..!

سرنا حول الصخور نبحث هنا وهناك متفحصين كل شق وشدة .. وبين حائطين من الصخور رأينا فتحة نفق مظلم كبير

وعلى الجرانيت رأينا حروفاً محفورة مألوفة لنا .

ـ أ . س .. (آرنيه ساكنوسم) !!

دائماً ـ وكما توقعت ـ يعود (ساكنوسم) للظهور ..

وهكذا وقف يرمق الحروف في انبهار هو أقرب إلى الجنون .. لقد وصل الرحالة العظيم إلى هنا منذ ثلاثمائة عام .. وحفر اسمه بل إن الأداة التي استعملها في يدى الآن .. وكل هذا حقيقي لا غبار عليه !!

كان عمى يحدث نفسه وكأنما يتحدث إلى (ساكنوسم) نفسه :

ـ أيها الرجل العظيم .. لم تنس شيئاً . يمكن أن يهتدى من يأتى بعدك .. لم تنس شيئاً . وإنني لواثق أنني سأجد اسمك في مركز الأرض . وسأترك اسمى هناك جوار اسمك ..

كانت نار الحماس تلتهب في أعماقي .

إننا سننجح .. سننجح ولن يعوقنا شيء .. فلسنا أقل من هذا الرجل :

ـ إلى الأمام يا عماه .. إلى الأمام !!

ـ بل لأسفل يا بني .. لأسفل ..!

• • •

٨ ـ النهاية ...

صرخت في عمي بانبهار حقيقي :

ـ هل تدرك يا عمي أن المصادفات جميعها تعمل لصالحنا ؟

ـ أتظن هذا يا (أكسل) ؟

ـ حتى العاصفة قادتنا إلى الطريق الصحيح .. لقد قادتنا [illegible] ـ تحمل اسم (ساكنوسم) وإلى حيث نجد بداية النفق الذي سلكه ..

ـ الحق أقول لك يا (أكسل) إن حظنا حسن إلى حد كبير ..

ـ ليس مهما أن نفهم ما سر حظنا .. فقط دعنا نستفد منه إلى أقصى حد ..

ـ هذا صحيح .. و ..

ـ سنعود للشمال يا عماه .. سنمر تحت أوروبا بدلاً من المرور تحت أفريقيا .. سننزل .. ننزل .. ننزل .. قلت لي كم بقي على مركز الأرض ؟

ـ فقط ٤٥٠٠ ميل .. !

ـ فقط ٤٥٠٠ ميل ؟ .. هذا لا شيء .. فلنبدأ في الحال .. !

وهكذا عدنا إلى الطوف حيث كان كل شيء معدًا
ورفعنا الشراع وبدأنا التحرك عبر الساحل قاصدين
المكان الذى وجدنا السكين فيه ..

فى السادسة مساء وصلنا إلى فتحة النفق ، فوثبت
إلى الشاطئ صارخًا :

ــ هيا بنا ..

كان ارتفاع الفتحة خمسة أقدام . هذا هو النفق
الذى سيقودنا إلى مركز الأرض إذن . هل هو منحدر
لأسفل ؟ أم هو مدخنة رأسية ؟ أم أننا سنمضى أيامًا
ماشين فى مستوى أفقى دون أن نهبط ؟

وكانت الإجابة قريبة جدًا ..

كانت هناك صخرة عملاقة تسد النفق على بعد
خطوات ست من فتحته . أى أن النفق قد انتهى !!.

كانت خيبة أملى لا توصف . إذن كيف اجتاز
(ساكنوسم) هذه العقبة ؟ وأى شيء فعل ؟ .

كلا . لا بد أن هذه الصخرة قد سدت النفق بعد عهد
(ساكنوسم) . ومن ثم لا بد أن نعيد فتحه ..
فلنستعمل المعاول .

ــ كلا . إن هذه الصخرة أقوى من معاولنا . ماذا
عن البارود ؟

ــ قال عمى :

ــ هذا هو الحل .. بارود .. هاته يا (هانز) ...

ذهب دليلنا الوفى إلى الطوف ، ثم عاد لنا بالبارود
ومعول يسمح لنا بعمل ثقب ندس فيه البارود فى
الصخرة .. خمسين رطلاً ...

وعند منتصف الليل كنا قد فرغنا ...

ــ والآن لننتظر إلى غد ..

ــ إلى غد ؟

كنت أنا ــ لا عمى ــ قائل العبارة الأخيرة . لأننى
كنت أنا نافد الصبر وليس عمى الذى غدا أكثر ميلاً
للتريث فى كل خطوة ...

وهكذا لم أجد مفرًا من الانتظار ست ساعات طويلة .

• • •

إنه الثلاثاء السابع والعشرون من أغسطس .

يوم لا يُنسى ...

اليوم نسلم أنفسنا لقوى الريح والنار والماء كى
تعنى بنا ...

أشعلت الفتيل ، ثم هرعت ألحق برفيقىّ على الطوف .
وابتعدنا بعيدًا عن التأثير المرتقب للانفجار .

خمس دقائق . أربع . ثلاث .

والآن فلتتهشمى يا صخور الجرانيت .

• • •

ماذا حدث ؟..

لا أدرى حقًا .. لم أسمع صوت الانفجار لكنى رأيت شكل الصخور ينسل .. والفتحة تتسع .. واهتز البحر من تحتنا .. وصعدت موجة هائلة اتحجم لاعلى حاملة طوفنا معها ..

ارتفع الطوف ثم هبط .. ساد الظلام .. وشعرنا بالماء يحملنا إلى فتحة الممر .. حاولت أن أقول شيئا لعمى لكن زئير المياه كان أقوى منى .. عبر الظلام يحملنا الأمواج بسرعة مجنونة إلى مكان ما ..

إننا نهبط ! .. إذن كانت هناك حفرة عميقة خلف الصخرة .. والآن يعوقنا الماء من خلال هذه الحفرة لأسفل !..

كم ساعة مرت علينا فى هذا الحال ؟ ساعة .. ساعتين ؟ لا أحد يدرى .. كل ما أذكره أننا كنا ملتصقين نمسك بأيدى بعضنا حتى لا يهوى أحدنا من فوق الطوف ..

وكان الظلام دامسًا لأن مصابيحنا تهشمت

أحدب أنا وعمى نتبادل نظرات الهلع مديرين ظهرنا لاتجاه حركة الطوف حتى نتمكن من التنفس ..

كان الطوف يسير بسرعة كأسرع قطار لم يخترعوه

بعد .. إن (ساكنوسم) قد سلك هذا الطريق قبلنا ولكن دون البحر الهائل الذى اصطحبناه معنا ..

ومرت ساعات ..

وبصعوبة بدأت أتبين أننا فقدنا كل متاعنا .. الحبال .. البارومتر .. كل شىء .. لم يبق لنا سوى البوصلة والكرونومتر .. وطعام ليوم واحد – للأسف – وهذا يعنى النهاية حتمًا

لكن لماذا أخشى الموت جوعًا فى حين أننى أملك ترف الموت بمئات الأساليب والأشكال ؟ إننا سنموت غرقًا أو تحطمًا أو هلعًا بالتأكيد قبل أن نموت جوعًا ..!

إن سرعة الطوف تزداد .. وانحدار الماء يتزايد ..

وفجأة شعرت بصدمة مروعة .. وتوقف الطوف .. بدأت المياه تنهمر حولنا .. ثم ساد الهدوء وشعرت بلذة التنفس

كانت الساعة العاشرة ليلاً ..

ثم إننى سمعت صوت عمى فى الظلام ..

– نحن نصعد .. !

– ماذا ؟

– نصعد .. نصعد بسرعة عالية .. حاول أن تضىء المصباح الباقى .. هكذا ! كما توقعت تمامًا .. إنه بئر عرضه عشرون قدمًا .. والماء يرتفع ونحن معه ..

ـ لأين ؟..

ـ وكيف أعرف ؟ إن سرعتنا لن تقل عن اثنى عشر قدم في الثانية .. أى تسعة أميال ونصف في الساعة ..

ـ ولكن هذا يعني أننا سنتهشم مالم نوجد فتحة فوقنا .. قال عمّى في رزانة :

ـ (كسل) إن موقفنا سيئ حقًا لكنه ليس مستحيلا ما دمنا أحياء .. ولهذا علينا أن نفعل ما ينبغى عمله

ـ وما هو ؟

ان نصير أقوى .. نأكل ...

ـ نأكل ؟!!

ونقلت عمى إلى (هانز) رطنا بالدانمركية ببضع كلمات .. فهز هذا الأخير رأسه موافقًا

قلت لعمّى :

ـ لم يبقَ لنا سوى قطعة من اللحم المقدد لثلاثتنا ..

رفع عمى رأسه نحوى في يأس .. فقلت :

ـ أما زلت تظن أننا سننجو ..؟

لم يردّ .. وكيف يردّ ؟..

كنا نشعر جوعًا لكن أحدنا لم يجرؤ على لمس وجبتنا الأخيرة .. كنا مستمرين في الصعود لكن حرارة

الجوّ تزداد بين لحظة وأخرى ..

فما معنى هذا ؟..

قلت لعمّى فى تشفٍ :

ـ إن خطر الموت سلفًا يضاف إلى قائمة أسباب وفاتنا ..!

مرة أخرى لم يرد عمّى ..

وفجأة قال :

ـ هلموا ! دعونا نأكل فنحن بحاجة للصمود ..

ـ أنت محق فلو متنا الآن لن نستفيد شيئًا من هذا اللحم الجيد ..

ـ نعم . على الأقل سنلاقى نهايتنا بصحة لا بأس بها ..

ومدّ عمّى يده وقسم قطعة اللحم ثلاثة أقسام متساوية . وهكذا نال كل منا رطلاً .. وشرعت اكل فى صعوبة كأنى ألتهم حجرًا .. أما (هانز) فظل على هدوئه وسكونه ..

إنها الخامسة صباحًا ...

كنت غارقًا فى خواطرى عن دارنا .. و (مارتا) الطيبة .. و .. حبيبتى (جروبين) .. أما عمى فكان منهمكًا في فحص الصخور محاولا استنتاج موضعنا وقال :

— هل رأيت ! .. لم نزل على عمق كبير .. لكننا نصعد باستمرار .. لقد مل عمي ! تارة لا يسعده سوى الهبوط وتارة لا يرضيه سوى الصعود .. لن أفهم هذا الرجل أبدا ..!

إلا أن الشيء الذي أثار رعبي كان هو هذا التصاعد المطرد في درجة حرارة الجدران الصخرية والماء .. لقد كان الماء يغلي وشرعت أتوقع مصيبة ما لا أدري كنهها

شيء ما سيحدث .. شيء لا أستطيع تسميته

• • •

وحين نظرت إلى البوصلة وجدت إبرتها تهتز بلا هدف .. صخور الجرانيت على الجدران ترتجف .. وثمة صوت شبيه بانفجارات بعيدة .. يا للرعب ! .. عمي !. إننا في وسط زلزال .. أنا واثق من هذا فماذا تقول ؟

— إنني أتوقع ما هو أفضل يا بني

— ماذا تعني ؟

— أعني انفجارًا خصبًا !

— ماذا ! .. هل نحن وسط بركان نشيط ؟!

— أستطيع .. وأعتقد أن هذا حظ حسن !

هل فقد عقله ؟ .. حظ حسن ؟ وما سر ابتسامته الهادئة هذه ؟

— عمي .. نحن في فوهة بركان وسط الحمم والبخار المحرق والصخور الملتهبة وسيقذف بنا في عنان السماء .. وأنت تقول حظ حسن !

— نعم .. هو أملنا الأخير في الصعود لسطح الأرض .. ألم تفهم بعد ؟!

— إذن فنحن نصعد .. تحت طوفان ماء يغلي وتحت الماء حمم تلتهب .. وبدلا من (سنيفل) الوادع الخامد هو ذا بركان نشط .. ولكن أين ؟ وما اسمه ؟.. إننا سنخرج في الشمال .. هذا مؤكد .. فهل سنخرج في (أيسلندا) من فوهة (هكلا) أو أي بركان آخر من البراكين السبعة التي توجد هناك ؟

إننا نصعد .. وهذا يعني نهاية رحلتنا إلى مركز الأرض

وتحت الطوف لم يعد ماء .. بل كتلة ملتهبة لا أدري ما هي ..

ثم — فجأة — توقف الطوف ..

ماذا حدث ؟ .. أتراه قد اشتبك بالصخور ؟ لكن لا .. حتى السائل الملتهب تحتنا قد توقف كذلك .. هذا غريب !

وفجأة عاد الطوف يصعد سريعًا لمدة دقيقتين ، ثم توقف ثانية .. نظر عمي لساعة الإيقاف .. وقال :

ـ إذن هو من البراكين التى تتجدد ثورتها كل عشر دقائق ..

وهنا عاد البركان لثورته .. وعدنا نرتفع بسرعة هائلة اضطرتنا للتشبث بالطوف .. ثم توقفنا

كم من الوقت تكرر هذا المشهد ؟ . لا أذكر .. فقط كنت أشعر بسرعتنا تتزايد والحرارة تشتد .. وبدأت أفقد حواسي .. لقد هدّني التوتر والصدمات المتتالية .

حقًا لا أذكر ما حدث بعد ذلك ..

فقط ضوضاء لا تكف .. وطوف يدور حول نفسه فوق الحمم .. ثم وجه (هانز) يلتمع فى ضوء النيران .

• • •

حين أفقت كانت ذراع (هانز) القوية تمسك بى .

ولم أكن مصابًا .. لكننى كنت منهكا تماما .. تمامًا

وكان (هانز) يمسك بى ويمضى جرًا بنا إلى مكان آمن .. مكان عرفنا فيه أن ما فوق رءوسنا ليس صخرًا ولكن سماء !..

سماء حقيقية ..!..

لقد عدنا إلى سطح الأرض .. ولكن أين ؟

سألت (هانز) ..

ـ هل هذه (أيسلندا) ؟

هزّ (هانز) رأسه أن لا .. وهتف :

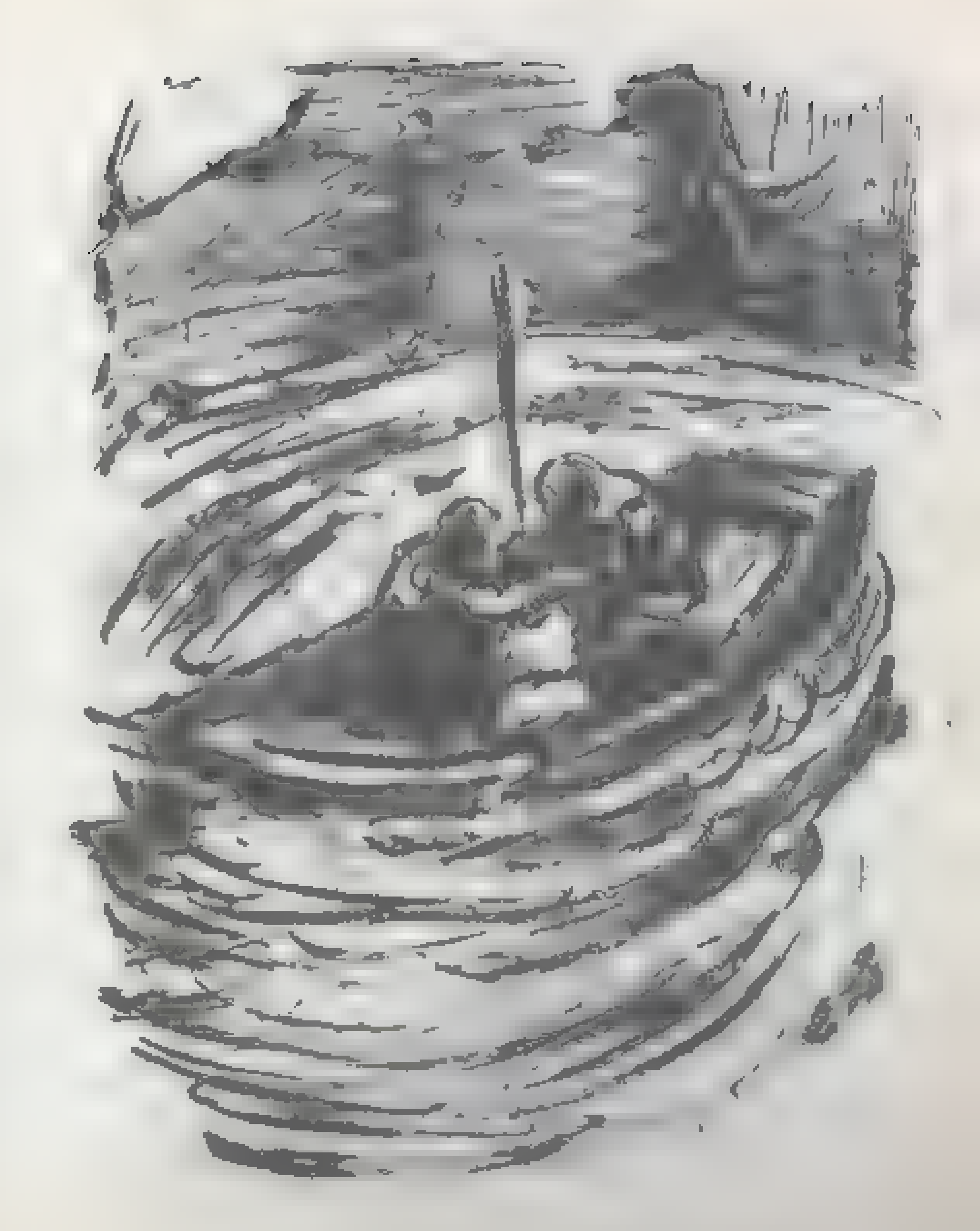

إننا نصعد .. وهذا يعنى نهاية رحلتنا إلى مركز الأرض ..

ـ [illegible] !

قال عمى فى حيرة :

ـ بالفعل لا تبدو هذه مثل (أيسلندا) .. لا توجد ثلوج .. بل هى أقرب إلى قمة جبل أحرقتها أشعة الشمس .. وإننى لمندهش !

وفوق رءوسنا ـ على ارتفاع خمسمائة قدم ـ كانت فوهة البركان التى جئنا منها .. تنفجر منها الحمم والصخور كلما مرت عشر دقائق .. وعلى مسافة غير بعيدة تتراءى لأعيننا الحقول البعيدة .. وخضرة الغابات ..

حقًا هى ليست (أيسلندا) ..

من مسافة شاسعة كنا نرى البحر الأزرق تسبح فيه سفن صغيرة غريبة المنظر ..

ـ على كل حال ليس من الجميل أن نموت بصخرة تسقط فوقنا من هذا البركان الثائر بعد أن نجونا من الاحتراق داخله .. دعنا ننزل إلى الوادى وسنعرف مكاننا بسهولة عندئذ .. أضف لهذا أننى أموت جوعًا وظمأ ..

هكذا قال عمى .. كان كلامه مقنعًا ..

شرعنا نهبط المنحدر وأنا ما أزال أتساءل .. أين نحن ؟ هل هو ساحل الهند أم جزر الملايو ؟.. على كل حال يسرنى أن أرى أن عمى سعيد برغم أننا لم نستطع الوصول إلى مركز الأرض كما أردنا ..

وعند الوادى وجدنا غابة تنبت بها أشجار الفاكهة .. ووجدنا ماء .. فشربنا حتى ارتوينا .. واستحممنا ..

وفجأة لمحنا طفلاً بين الأشجار .. طفلاً فقيرًا ممزق الثياب يرمقنا بهلع حقيقى .. ثم حاول الهرب إلا أن (هانز) لحق به وحمله إلينا ..

سأله عمى بالألمانية :

ـ صديقى الصغير .. ما اسم هذا البلد ؟

لا إجابة ..

أعاد عمى سؤاله بالإنجليزية فلم يتلق إجابة ..

ـ إذن هذا البلد ليس ألمانيا ولا إنجلترا .. فلنجرب الإيطالية .. .. أ .. دوفى نوى سيامو ؟

صرخ الطفل وهو يتملص من قبضة (هانز) ويجرى بعيدًا :

ـ (سترومبولى) !!

لم تعد لنا حاجة إليه الآن ..!.. إذن نحن فى جزيرة وسط البحر الأبيض .. والمرتفعات المحيطة بنا هى مرتفعات (كالابريا) .. وإذن فالبركان هو بركان (إتنا) !!

أية رحلة رائعة قمنا بها !.. دخلنا فى بركان وخرجنا من آخر يبعد عنه ثلاثة آلاف ميل ..!.. بدأنا فى بلد الصقيع وخرجنا فى أجمل بلدان الأرض ..

اتفقنا على أن نمشى للبلدة على ألا نخبر الأهالى برحلتنا .. بل نزعم أننا بحارة غرقت سفينتهم ونبغى عوننا ..

وهكذا تحركنا .. لكن عمّى لم يكن راضيًا أبدًا وشرع يردد :

ـ لكن البوصلة كانت تشير إلى الشمال .. دومًا إلى الشمال .. كيف ؟ كيف ؟

ـ لا تحاول البحث عن تفسير .. هكذا تريح وتستريح ..

ـ يا لها من فكرة .. أستاذ جامعة لا يستطيع أن يفسر شيئًا كهذا ؟

أى عجز ..

* * *

وهكذا تصل القصة إلى نهايتها .. أعلم أن أحدًا لن يصدقها لكن هذا لا يضايقنى .. إن الناس قد دأبوا على تكذيب كل ما لا يوافق ما يريدون تصديقه ..

لقد أحسن أهل (سترومبولى) وفادتنا .. وقدموا لنا الطعام والملبس .. ثم إننا أقلعنا إلى (ميسينا) فى الواحد والثلاثين من (أغسطس) ثم إلى (مارسيليا) .. ولم ينغص رحلتنا سوى هذا الموقف العجيب الذى تتمسك به بوصلتنا ...

وفى التاسع من سبتمبر وصلنا إلى (هامبورج) !

لن أصف لك ذهول (مارتا) ولا غبطة (جروبين) التى هتفت وهى تمسك يدى :

ـ أما قد غدوت شهيرًا فلن تحتاج إلى فراقى ثانية ..

وسرعان ما دوّى خبر عودة البروفسير (ليدنبروك) فى (هامبورج) .. فقد كانت ثرثرة (مارتا) قد جعلت الجميع يعرفون بغرض رحلتنا .. وبالطبع لم يصدقها أحد .. أما وقد عدنا سالمين ، فإن أحدًا لم يعد يصدقها إطلاقًا ..!

إلا أن وجود (هانز) معنا جعلهم غير واثقين تمامًا من كذبنا .. وفى الجامعة ألقى عمّى محاضرة عن رحلته .. وقدم للجامعة المخطوطة الأصلية التى كتبها (ساكنوسم) عن رحلته التى سبقنا فيها إلى باطن الأرض ..

على أن عمّى قد كسب أعداء كثيرين (وهذا محتّم طبعًا) .. وزاد من ضيقتنا ذلك اليوم الكئيب الذى أعلن (هانز) فيه عزمه على العودة إلى داره .. سألناه مرارًا أن يبقى معنا .. لكنه كان يعانى من الحنين للوطن .. وقال لنا مودعًا :

ـ فيرفال ... !

لقد أحببنا هذا الرجل الشجاع الصموت كثيرًا .. ولولاه لما حققنا نجاحًا .. ولا ظللنا حيين أنا وعمّى .. ولسوف نذكره ما حيينا .. ولسوف أراه حتمًا يومًا ما ..

على أن سرّ البوصلة ظل غامضًا ..

وبالتالي لم يستطع عمي قط أن ينعم بثمار النجاح ..
إلى أن جاء ذلك اليوم الذي كنت أتأمل فيه البوصلة حين فهمت على الفور ما حدث ..
يا لها من مفاجأة !
ناديت عمي :
ـ انظر يا عماه .. البوصلة ..!.. إنها الآن تشير نحو الجنوب بدلا من الشمال ...
صرخ عمي في تعاسة :
ـ مستحيل !
ـ تأملها !
وهنا فهم عمي الأمر برمته :
ـ فهمت كل شيء !.. حين واجهنا العاصفة الكهربية في بحر (ليدنبروك) تمغنطت البوصلة ضمن الأشياء التي تمغنطت .. وبالتالي حصلنا على قياسات خاطئة طيلة الوقت ...
ـ بالفعل ...
وانفجر عمي ضاحكا :
ـ كانت دعابة .. دعابة كهربائية !!
ومنذ ذلك الحين غدا عمي أسعد الرجال .. ربما باستثناء رجل واحد وهو أنا ..
لأن (جروبين) كانت قد صارت زوجتي .

• • •

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع : ٢٥٥٧ .
٩٧٧ـ١٦٣ـ٣٩٤ـ٥

روايات عالمية للجيب

مكتبة متكاملة
لأشهر الروايات العالمية

رحلة إلى مركز الأرض

كانت فكرة مجنونة خطرت لعمه ، ولم يكن يملك سوى القبول .. سيقومان برحلة إلى مركز الأرض عبر فوهة بركان خامد ..!..! إن أحدا لم يسبقهما إلى رحلة مماثلة .. هنا كل شيء ممكن .. كل كابوس حقيقة .. وكل خطوة قد تكون الأخيرة ..!

إن عشاق (جول فيرن) لن يدعوا هذه الرواية تفوتهم ..

٧

العدد القادم : الغيرية

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع